سلسلة تحقيق اشتراكية الثقافة

كتاب الشعب

5

1983

محمد أحمد وريّث

أثر بعد عين

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان

طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

محسن أبو يوسف الحريشي

أثر بعد عين

كتاب الشعب

محمد أحمد وريِّث



منشورات

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان

طرابلس ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

العدد 5 | مايو 1983

الطبعة الأولى

1392 و.ر — 1983 م

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

(اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ،
اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان
ما لم يعلم)

(سورة العلق : 1-2-3-4-5)

(. . . وما اوتيتم من العلم الا قليلا)

(سورة الاسراء : من الآية85)

الإهـــداء

الى

ميسون ابنتى

اعجابا بمن ينسب اليها انها قالت :

تُلْبسُ عبـاءة وتقـرّ عينى
أحـب الى من لُبْسِ الشفوف
وبيت تخفـق الارياح فيه [1]
أحـب الىّ من قصر منيف

وهى « ميسون بنت بحدل » زوجة معاوية بن ابـى سفيان بعد ان سئمت حياة الترف فى قصوره فى دمشق ، حتى ضج الناس لذلك ، فصاح فيه (ابوذر الغفارى) ثائرا :

---

(1) وفى رواية اخرى « الأرواح » .

(أن كان هذا من مال المسلمين فهو خيانة ، وان كان من مالك فهو اسراف ، يا معاوية : لقد اغنيت الغنى وافقرت الفقير) :

بَعدَ أن تبدَّل سَيْرُ التّاريخ



ولكنها قدرته يجليها تقديره !!

أمتحن الله سبحانـه وتعـالى رسولـه الـكريم عدة مرات ، بموت عمه أبى طالب وبأنتقال خديجة زوجه العطوف الى الرفيق الأعلى في وقت كان أشد فيه اليهما أكثر من غيره من الأوقات ، وبموت ابنيه القاسم وعبدالله الطاهر الطيب وبناته زينب ورقية وام كلثوم ثم ابنه ابراهيم الذى أتاه على كبر وقد كان يخطو الى الستين ، فلم تكن تلك الأحزان والملمات كلها أمتحانا واحدا بل أمتحانات متعددة وجسيمة ، صمد لهـا الرسـول الـكريم بعزم وثبات نادرين ، مثبتاً أنه ـ بحق ـ المصطفى الذى أختاره ربه من دون سائر البشر لنشر الرسالة الخالدة وتحمـل تبعاتهـا الخطيرة الكبيرة بصبر وشجاعة .

ولم يتبقَّ للرسول الكريم من بنيه الا فاطمة الزهراء فلم يجد

المشركون الحاقدون من نقيصة فيه الا أن يصفوه بالابتر الذى لا عقب له ، ولقد أحزنه ذلك كثيرا . . . احزنه أن ينعتوه بهذه الصفة ولكن الله ـ جل وعلا ـ وهو الذى معه دائما تكفل عنه بالرد على المشركين الموتورين مطمئنا رسوله الكريم بقوله تعالى فى سورة الكوثر ﴿ إنّا أعطيناك الكوثر ، فصلِّ لربك وانحر ، إنّ شانئك هو الأبتر ﴾ .

ولم يكن ذلك كله إلاّ لحكمة عظيمة قدّرتها القدرة الالهية العظمى لها مدلولاتها التى ترقي بها عن فهم البشر ، وادراكهم أو حتى تفكيرهم .

وهكذا هو دأب القدرة الالهية العظيمة مع حامل الرسالة الخالدة ، فحينما غاب عنه جبريل عليه السلام فترة من الزمن ، وانقطع عنه الوحى ولم ينزل عليه لحكمة ارتأتها القدرة الخالقة المقدرة المسيطرة على كل الامور فى الكون ، وشعر الرسول بالضيق والألم متحسبا أن انقطاع الوحي عنه ، إنما هو وداع ونسيان من الله الذى أختاره مبشرا ونذيراً ، وكما قالت خديجة التى احست بما يدور فى نفسه وما يعانيه ـ ما أرى ربك الا قد قلاكِ ـ فاذا بقول القدرة العظيمة يأتيه مطمئناً كعادتها معه ، مثلما اسلفنا ، فى حنان وعطف سماوى : ـ

﴿ والضحى والليل اذا سجى ، ما ودعك ربّك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، الم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلا فاغنى ، فاما اليتيم فلا تقهر واما السائل فلا تنهر ، واما بنعمة ربك فحدث ﴾ .

وعندما شمل الرسول العطوف الكريم برعايته - زيد بن حارثة - الذى اختار الحياة في كنفه مفضلاً إيّاه عن العودة الى أهله وعشيرته حين جاء والده واقاربه فى طلبه وقد بيع رقيقاً ، فخيره بين البقاء معه أو المغادرة معهم فأنزله منه بمنزلة الإبن الحبيب ، وقد أوشك الرسول الكريم من فرط حبه له أن يتبناه ، فنزل إليه الأمر السماوى بالانتهاء عن ذلك معيداً الأمور الى مكانها الصحيح ، لأن الأبناء يجب أن يدعوا لآبائهم الحقيقيين ويتسموا بأسمائهم وينسبوا اليهم ، ذلك هو الوضع السوي الذى يتوافق مع الفطرة وما جُبلتْ عليه النفوس البشرية .

وسواء أكانت الحكمة الالهية قد قدرت هذا الأمر وحده أم شملت بالتقدير أمورا أخرى غيره تختص بتنظيم شؤون البشر النفسية والمادية الأجتماعية ، فاننا لا يفوتنا فى هذا الصدد أن

نذكر قولـه تعـالى فى الآيتـين الرابعـة والخامسـة من سورة ﴿ الأحزاب ﴾ :

﴿ ما جعـل الله لرجـل من قلبـين فى جوفـه ، ومـا جعـل أزواجـكم اللائـى تُظاهـرون منهـنّ أمهاتـكم ، ومـا جعـل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . ﴾

﴿ أدعوهم لآبائهـم هو أقسـط عنـد الله ، فان لم تعلمـوا آباءهم فاخوانكم فى الدين ، ومواليكم ، وليس عليكم جُناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبـكم ، وكان الله غفـورا رحيما . ﴾

ولا يفوتنا ـ فى هذا الصدد أيضا ـ أن نذكر نصاً قرآنياً صريحا آخر فى الآية الأربعين من سورة ﴿ الأحزاب ﴾ نفسها .

﴿ ما كان محمدٌ أبا أحد من رجالكم ، ولـكنْ رسـول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شىء عليما . ﴾

ودون حاجـة الى سرد الملابسـات التـى شاعت حول دور

الرسول فى تزويج بنت عمته ﴿ زينب بنت جحش ﴾ من ﴿ زيد بن حارثة ﴾ وطلاقها منه ، فانه لن يغيب عن أذهاننا ما يحمل زواج الرسول بها - بعد ذلك - من معان لعل أبرزها اقرار شرعية الزواج بمطلقات الأدعياء أو الموالى كما هو واضح فى الآية السابعة والثلاثين من نفس سورة ﴿ الأحزاب ﴾ نفسها.

﴿ واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحقُّ أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حَرجٌ فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا . ﴾

ذلك ما قدرته الارادة السماوية فيما يخص الأدعياء والموالى ومن كانوا على شاكلة (زيد بن حارثة) وأما الأبناء الذين من الأصلاب فالأمر معهم يختلف تماما وازواجهم يعتبرن فى عداد المحارم بالنسبة للآباء - مهما كانت الأحوال - ونص التحريم فى ذلك واضح صريح وقاطع فى الآية الثالثة والعشرين من سورة ﴿ النساء ﴾ :

﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى

ارضعنكم واخواتكم من الرَّضاعةِ وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حُجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهنّ فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جُناح عليكم ، وحلائل ابنائكم الذين من اصلابكم وان تجمعوا بين الأختين الا ما قد سلف إنّ الله كان غفورا رحيما . ﴾

واذا كانت الأرادة السماوية قد امتحنت محمدا ـ عليه السلام ـ فى موت بنيه باحتسابهم ، فلم يتبق له منهم سوى ﴿ فاطمة ﴾ فذلك لأنها ستتزوج ، وسيكون لها من البنين من سيدعون لأبيهم وسينسبون اليه لا الى محمد عليه السلام ، اذ هو لن يعدو كونه جدهم ، وذلك الذى كان ، فكان جد الحسن والحسين ابنى على بن أبى طالب .

وذلك أمر بحسب اعتقادنا ـ أراده الله عز وجل ـ فقضى أن يكون زيدٌ إبنَ حارثة أبيه الذى هو من صلبه لا ابن محمد بن عبد الله ولو بالكفالة أو التبنى ، والا يكون له أبناء ذكور من صلبه حتى يطالبوا فى حياته أو بعد مماته بميزة من الميزات التى يطالب بها ابناء الحكام والملوك ، والأمراء والخلفاء ويدعون أنّ الحكم لهم من بعد آبائهم ، فلم يكن محمد حاكما أو ملكا أو أميراً أو خليفة ، وانما هو نبى مرسل ، بلّغ رسالة وأدّى أمانة

بحسب ما أرادت له القدرة الالهية بقولها ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الأسلام دينا ﴾

وعندما مرض الرسول الكريم مرضه الـذى أنتقـل به الى الرفيق الأعلى ، كان له فى بيته من متاع الدنيا سبعة دنانـير لا غير ، فامر أهل بيته ان يتصدقوا بها على الفقراء والمسـاكين ، وفى غمرة انشغالهم بتمريضه والسهر على راحتـه ، نسـوا أن يتصرفوا فى الدنانير بما امرهم به ، فسألهم عنها ، فوجدها لم تزل بحوزتهم فكرر لهم أمره حتـى تصدقـوا بهـا ، مخافـة ان يدركه الموت ، وهى معهم وأليس هو القائل ﴿ نحـن معـاشر الأنبياء لا نورث ، وما نتركه صدقة ﴾

وعندما توفى عليه السلام أبدت فاطمـة ابنتـه الحبيبـة اليه رغبتها الى أبى بكر الصديق وقد صار الخليفة من بعد أبيهـا ـ وكان يعلم مدى حبه لها ، أن يعطيهـا بعض أرض لأبيهـا فى منطقتى ـ فدك وخيبر ـ آلت اليه من الفىء كغيره من صحابته المجاهدين ، سألها ابـو بكر فى تجـرد من كل عاطفـة إن كان والدها قد أوصى لها بذلك فى حياته ، وعندما أجابته بالنفى ، ذكرها بقوله عليه السلام ـ نحن معاشر الانبياء لا نورث ، وما

نتركه صدقة ، وضم الارض الى بيت مال المسلمين[1] .

وبعد وفاة الرسول الكريم أيضاً ، وكانت بوادر الخلاف بين المهاجرين والأنصار ، قد أزمعت أن تكشر بأنيابها الشرسة بين المسلمين لتفرق بينهم بسبب الخلافة ، وأدركهم عمر بن الخطاب بحزمه العادل مجتمعين فى سقيفة بنى ساعدة يتجادلون وأخذ منهم البيعة لأبى بكر بعد أن مدّ له يديه مبايعا ، ثم خرج معه الى المسجد ليأخذ له البيعة العامة من المسلمين ، لم يقل للمهاجرين والأنصار ولم يقل لعامة المسلمين أن محمدا قد ورّثه الحكم والخلافة من بعده ، فمحمد عليه السلام - وان اختار ابا بكر للصلاة بالناس فى المسجد خلال فترة مرضه - لم يكن يقصد أن يوليه حكما أو خلافة من بعده والا كان فعل ذلك صراحة ، وقد قال لهم عمر بايعوا أبا بكر فهو خيركم جميعا ، أو لم يكن مع الرسول فى مخاطر هجرته وفراره بدينه من بطش

---

(1) من المراجع الهامة فى مثل هذه المسألة كتاب ﴿ حياة محمد ﴾ الذى تناول فيه ﴿ الدكتور محمد حسين هيكل ﴾ كثيرا من المسائل الدقيقة التى تخص حياة الرسول الكريم بأسلوب منطقى متجرد . أنظر طبعته الخامسة عشرة من نشر دار المعارف بمصر . (دون تاريخ) . ولا يفوتنى أن أذكر أننى أفدت فائدة جمة من بعض آرائه وخلاصات احكامه التى توصل اليها فى هذا الصدد .

قريش وظلمها ؟ . . الم يكن آبو بكر ﴿ ثانى اثنين اذ هما فى الغار ؟! ﴾

تلك هى بعض من المعانـى السـامية والمدلـولات النبيلـة الخالدة التى أرادتها السماء ، وانما أمره ـ سبحانه وتعالى ـ اذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون .

ولله وحده ـ من قبل ومن بعد ـ العلم .



الذي أذهل صاحب كسرى !!

(1)

ها هو عمر بن الخطاب ، فى بيت اخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد ، وقد أسلما وآمنا بالله ورسوله ، ويقرأ للمرة الاولى فى حياته ، هذه الآيات المنزلة من بعد أن سمعها تتناهى اليه كالهينمة :

(طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . الا تذكرة لمن يخشى . تنزيلا ممن خلق الارض والسماوات العلى . الرحمن على العرش استوى . له ما فى السماوات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى . وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر واخفى الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾ .

ويواصل عمر القراءة من الصحيفة التى كانت تخفيها فاطمة

فى ثنايا ثوبها خوفا منه بعد أن فاجأهم : فاطمة وسعيدا وخباب بن الأرث ، الذى كان معهما :

(انى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى واقم الصلاة لذكرى. ان الساعة آتية أكاد اخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى .)

ويدخل الإيمان قلب عمر ، ويهز اركان الكفر والجاهلية فيه فتتصدع وتنهار امام قوة الحق ، ويتجه من فوره الى الرسول الكريم فى دار (الارقم بن أبى الارقم) فى مكة ويشهد أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، ويعز الله الاسلام بأحد العمرين ، عمر بن الخطاب ، لأن عمر الآخر « عمرو بن هشام » أبا جهل ، الذى عناه الرسول حين دعا ربه ان يعز الاسلام بأحدهما ، قد اعمته جاهليته عن نور الاسلام ، واصابت الوثنية المتعجرفة سمعه بالصمم ، فلم يسمع نداء الحق وكان على مقربة منه يرتفع فى العالمين (1) .

---

(1) وانظر : خلفاء الرسول ، خالد محمد خالد : لبنان ، بيروت ، دار الكتاب العربى ، 1974 م « الطبعة الثانية » .

(2)

ذلك هو عمر بن الخطاب ، الذى كان قبيل أن يقصد بيت اخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد ، يبحث عن محمد بن عبد الله يريد قتله حتى يخلص قريشاً منه ، فإذا به من بعد عداوته الشديدة للاسلام ، يصبح من اشد رجاله عداوة للكافرين ، واذ به يصير واحداً من أقرب صحابة الرسول إليه ، واعزهم عنده مكانة وتقديراً لرأيه .

ذلك هو عمر ، ومهما يتحدث المتحدثون عنه آو يكتب الكاتبون حوله ، فانهم لن يستطيعوا بكل جوانب تفرده ونبوغه احاطة او الماما ، ونحن ـ هنا ـ ما نريد إلاّ ان نتتبع لمحات يسيرة من سيرته الحافلة بالاعمال العظيمة من خلال قصيدة (حافظ ابراهيم) الشهيرة « العمرية » فهن من أجمل الشعر الذى قيل فى عمر منذ زمن طويل فلم تفقد بريقها ، ولا خبت جزالتها ودقة تناولها لاحداث كان (الفاروق) صانعها ، بل كان محورها الذى دارت حوله . [1]

يقول (حافظ ابراهيم) فى مستهلها :

---

(1) والقصيدة التى تعدّ بحق ، ملحمة حياة عمر ، تتكون من مائة وسبعة وثمانين بيتاً .

حسب القوافي وحسبي حين ألقيها
أني الى ساحة الفاروق أهديها

(3)

وبتفصيل فني واضح يتطرق (حافظ ابراهيم) الى الملابسات التى قادت عمر الى الاسلام وحقيقته ، باسلوب آخاذ مفعم بعاطفة الأعجاب بالرجل الذى كان نقطة تحول كبرى فى تاريخ الرسالة الخالدة ، واخراجها الى طور التحدى لقريش نفسها بعتاتها الخائفين على اموالهم ومراكزهم من هذا الدين الذى ساوى بين العبيد ومن توهموا أنهم سادة لا يدانيهم احد فيقول :

قد كنت أعدى أعاديها فصرت لها
بنعمة الله حصنا من أعاديها
خرجت تبغى أذاها فى محمدها
وللحقيقة جبار يواليها
فلم تكد تسمع الآيات بالغة
حتى انكفأت تناوى من يناويها
سمعت سورة (طه) من مرتلها
فزلزلت نية قد كنت تنويها

وكما هو عمر دائما ، لا يخشى أحدا فى الحق ولا يفرق بين الناس فى احقاقه ، فها هو (جبلـة بن الأيهْـم) أحـد ملـوك الغساسنة فى الشام قد اعتنـق الاسـلام ، وجـاء ذات عام الى الحـج ، وبينما هو يطـوف حول الكعبـة مع الطائفـين ، واذا باعرابى يطأ ثوبه دون قصد فما كان منـه الا أن لطمـه لطمـة هشمت أنفه ، وجاء الأعرابى الى عمر يشكو جبلة ، ولم يتردد الفاروق وامر له بالقصاص منه ، ولكن جبلـة لم يكن الايمان قد لامس قلبه بعد ، فأبى ذلك وهرب تحت جنـح الظـلام ، والتجأ الى القسطنطينية ، وارتد عن الاسلام وتنصر ثانية ، وفى ابيات موجزة يروى (حافظ ابراهيم) هذه القصة ، فيضفـى عليها بلاغة معبرة ساحرة :

كم خفـت فى الله مضعوفـا دعــاك به
وكم أخفــت قويا ينثنـــى فيها
وفى حديث فتـــى غســـان موعظة
لــكل ذى نعــرة يأبــى تناسيها
فما القــوى قويا رغـــم عزته
عنــد الخصومــة والفــاروق قاضيها

ومـا الضـعيف ضعيفـا بعـد حجته

وإن تخاصـم واليهـا وراعيها

(5)

وفى العدل يستوى جميع الناس عند عمر ، فلا يقبل ظلما ولا يترك منفذا يؤدى الى استغلال ، او يحرض على اتخاذ عمر نفسه مطية الى مثل ذلك ، وها هو ابنه عبد الله يشترى نوقاً يرعاهـا مع ابـل المسلمـين ، فيراهـا عمـر متميزة على غيرهـا سمانا ، فيخشى ان تكون نوق عبد الله قد احيطت بعناية لم تحط بها ابل القطعان الاخـرى التـى ترعـى بجانبهـا ، فيأمـر الفاروق برد الثمن الذى اشتريت به الى ابنه ويضمها الى بيت مال المسلمين ، وفى هذا يقول (حافظ ابراهيم) :

ومـا وقـى ابنـك عبـد الله أنيقه

لما اطلعـت عليهـا فى مراعيها

رأيتهـا فى حمـاه وهـى سارحة

مثـل القصـور قد اهتـزت اعاليها

فقلـت ما كان عبـد الله يشبعها

لـو لم يكن ولـدى او كان يرويها

قد استعـــان بجاهـــى فى تجارته

وبـــات باســـم أبـــى حفص ينميها

ردوا النياق لبيت المال إنّ له

حـــق الـــزيادة فيهـــا قبـــل شاريها

وهـــذه خطـــة لله واضعهـــا

ردت حقوقـــا فأغنـــت مستميحيها

(6)

وهذا رسول من كسرى ، يجىء الى عمر فيحسب انه ملاق ملكا كالملوك فى قصره المنيف ، ويسأل عنه فيدلونه عليه ، فاذا هو أمام بيت مثل بيوت الفقراء ، ولا يصدق ، وتذهله المفاجأة الاخرى حين يشيرون الى رجل يرتدى ثيابا بالية كان راقداً على الرمل ويتخذ منه وسادة يضع عليها رأسه ، ويقـال له : هذا عمر ، ولو لم يكن أمامه حقيقـة لما صدق هذا الـذى يرى ، خليفة المسلمين لا يميزه عن فقرائهم شىء ، أين هذا من الملوك فى قصورهم وحاشيتهم وترفهم ؟؟

ولا يملك الموفد ، ولا يتمالك نفســه الا أن يقـول له قولتـه الشهيرة التى تداولها الناس من بعده (عدلت فأمنت فنمت يا عمر) ويصور لنا (حافظ ابراهيم) ذلك المشهد فيقول :

وراع صاحـــب كسرى أن رأى عمرا
بـــين الـــرعية عطـــلا وهـــو راعيها

ويقول :

رآه مستغرقـــا فى نومـــه فرأى
فيه الجلالـــة فى اسمـــى معانيها
فوق الثرى تحت ظل الـدوح مشتملا
ببـــردة كاد طول العهـــد يبليها
فهـــان فى عينـــه ما كان يكبره
مـــن الاكاسر والـــدنيا بأيديها
وقـــال قولـــة حق اصبحـــت مثلا
واصبـــح الجيل بعـــد الجيل يرويها
أمِنـــت لما أقمـــت العـــدل بينهمو
فنمـــت نوم قرير العـــين هانيها

(7)

ويقبّل عمر (الحجر الاسود) فى جدار الكعبة ، ويستدرك ذلك ويكاد يستنكره على نفسه ويقول : « والله إنى اعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر ، ولولا انى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » .

وعندما يرى عمر ان الناس قد اتخذوا من الشجرة التى بايع المسلمون تحتهـا الرسـول بيعـة (الرضـوان) يوم الحـديبية ، وعاهدوا الله فى ظلها أنهم سائرون معـه فى جهـاده من اجـل الدعوة ، مزارا يطوفون حوله ، ويصلـون عنـده ، خاف أن تتحول الشجرة الى بدعة جاهلية وثنية ، ازالها من الارض ، غير عابىء باستنكار المحتجين واحتجاج المنكرين عليه ذلك ، وهى الشجرة التى ورد ذكرهـا فيما يخص تلك البيعـة فى الآية الثامنة عشرة من سورة « الفتح » :

(لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا .) .

وفى بيتين اثنين فقط يصور لنا حافظ ابراهيم فى « عمريته » هذه الحادثة تصويرا بليغا وموجزا :

وسرحـــة فى سماء السرح قد رفعت
ببيعـــة المصطفـــى من رأسهـــا تيها

ازلتهـا حـــين غالـــوا فى الطـــواف بها
وكان تطوافهـــم للـــدين تشويها

* هذا هو عمـر ، الشـديد على المسلمـين فى جاهليتــه ، الشديد على الجاهليين ومن فيهم بقايا من جاهلية فى اسلامه ، وشتان ما بين العمرين ؟ !

فى سورة الكهف .. إعجاز من نوع آخر

تتكون سورة (الكهف) أو (اصحاب الكهف والرقيم)[1] من عشر آيات ومائة ، وهى مكية النزول ، ما عدا الآية الثامنة والثلاثين التى تنص على الاقرار الأبدى الأزلى لكل قلب مؤمن :

(لكنّا هو الله ربى ولا اشرك بربى أحدا)

وكذلك الآيات التى تبتدىء من الثالثة والثمانين وتحكى لنا خبر (ذى القرنين) (ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو

---

(1) يقال من جملة التفسيرات لكلمة الرقيم ، إن المقصود بها فى الآية ، اللوح الذى فيه اسماؤهم وقصتهم أو هو الجبل الذى فيه كهفهم ، وقد تعددت الاقوال فى ذلك وتباينت . راجع على سبيل المثال (تفسير القرآن الكريم ، لابن كثير - جـ4 « تفسير سورة الكهف » ط دار الاندلس - بيروت - لبنان « دون تاريخ ») .

عليكم منه ذكرا) حتى الحادية بعد المائة (الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا) وهى فى مجموعها عشرون آية قد تكون مدنية كلها او أنزلت على الرسول الكريم مرة واحدة فى مكان واحد ، او فى عدة مرات وفى أماكن متفرقة بعد مغادرته مكة وهجرته منها .

وتحمل سورة (الكهف) العدد الثامن عشر فى ترتيبها فى المصحف او فى نزولها كذلك ، وإن لم يكن النزول متتاليا ومتتابعا بل جاء متفرقا ، وهو ـ كما نعلم ـ إحدى خصائص القرآن ومن دلالات اعجازه .

وحين ننظر الى هذه السورة ، فانه لا بد لنا من تتبعها على هَدْىٍ من الشروط الضمنية التى وضعها الله سبحانه وتعالى لمثل هذا النظر ، وهذا التتبع ، فى ثنايا القرآن كله ، وفى هذه السورة نفسها .

● وعلينا بادىء ذى بدء أن نقرأ :

(ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون : يا ويلتنا مالِ هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا) (الكهف 49) .

● وأن نقرأ :

(ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الانسان اكثر شيء جدلا) (الكهف 54) .

ونضع سورة (الكهف) تحت هذا المفهوم ، فهى تروى لنا طرفا من اخبار الغابرين شأنها شأن كثير من آيات وسور القرآن ، ليتخذها الانسان مثلا وعظة وقدوة وعبرة ورادعا لأهواء نفسه ، هذا الانسان الذى زوّده الله بالعقل فكان اكثر المخلوقات جدالا وبحثا عن المعرفة وتقصيا للحقيقة سواءً في ذاته هو وتكوينه وخلقه ، او بجافز من تفكيره وبصيرته فيما يحيط به من موجودات واشياء .

● بل إنّه علينا ان ننطلق من فاتحة سورة (الكهف) ذاتها ، من آيتها الاولى التى تقول :

(الحمد لله الذى انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا) .

فهذا - ايضا - شرط اساسى لمناقشة القضايا القرآنية ، وما دام الايمان حاصلا فلا بد له ان يكون واضحا يرسخه عقل متفتح وبصيرة واعية ثاقبة ، وقلب مطمئن ، متمثلين بقوله تعالى ايضا :

(واذ قال ابراهيم : رب أرنى كيف تُحيى الموتى . قال او لم تؤمن؟! قال: بلى ، ولكن ليطمئن قلبى . .) (البقرة260) .

إن الايمان ـ هنا ـ يعمر قلب ابراهيم ، وهذا هو المبتدأ ، وكان مؤمنا بأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يحيى الموتى ، فقال له (كيف تحيى الموتى) ولم يقل لماذا ولم يسأل عن الاسباب ، لأنه يعرفها مسبقا ، إنه فقط ، يريد أن يزداد ايمانا ويقينا ، ولذلك فان الله الذى فجر فى نفس ابراهيم هذا السؤال واوعز اليه بهذا الطلب ، لم يتأخر عليه بالرد والاستجابة وبالدليل العيانى المشهود ، لأن العلى القدير يتيح أمام البشر سبل الايمان ويطلب منهم ويحفزهم ويحثهم التفكر والتمعن والتبصر ليكون ايمانهم منطقياً يقينيا لا يداخله شك ، ولا تخالطه ـ بعد ذلك ـ شائبة من ظن ، فقال لابراهيم :

(. . . . قال: فخذ اربعة من الطير فصُرهنَّ اليك ثم اجعل على كل جبل منهنّ جزءا ثم ادعُهُنَّ يأتينك سعيا واعلم أنَّ الله عزيز حكيم) (البقرة260) .

وما دمنا نتّبع هذا المنهج فى عرض القضايا القرآنية ومناقشتها (بقلوب مطمئنة) فاننا نستطيع أن نعرض لقصة (اصحاب

الكهف والرقيم) (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) (الكهف9) وهى القصة التى اثارت ولا تزال وسوف تظل تثير فى النفوس العجب والعبر والعظات المعجزة أمام قدرة الله الذى أحاط بكل شيء (الله لا اله الا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الارض من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء وسع كرسيه السماوات والارض ولا يؤده حفظهما وهو العلىّ العظيم .) (البقرة255) .

ولا نريد أن نسرد القصة لأن تفاصيلها ميسرة للجميع ومعروفة لديهم ، وقراءتها باسلوبها البلاغى الاعجازى كما أوردها القرآن متاحة لكل من يرغبها ، ولكن المثير ، والمعجز حقا - الى جانب معجزة اصحاب الكهف انفسهم - يكمن فى الاعداد الدقيقة التى حفلت بها القصة ، تلك الاعداد التى تحمل - دون شك - سرا لن نستطيع له تفسيرا مهما اجرينا من عمليات حسابية بسيطة او مركبة ، ومهما حاولنا تخمينه وتعليله ، والحقيقة الالهية القرآنية تواجهنا بهذا فتقول :

(. . . . قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل ، فلا تمار

فيهـم الا مِراءً ظاهـراً ولا تستفـت فيهـم منهـم أحـدا)
(الكهف22) .

واننا نمتثل للأمر الالهى العظيم لسببين :

● الاول : لانـه أمـر من الله سبحانـه وتعـالى ولا بد من الاذعان له .

● الثانى : لأننا مهما استخدمنـا عقولنـا الصغـيرة سنقف عاجزين عجزا مطلقا امام فهم هذا الامر والتوصل الى كنهه .

واننا ـ هنا ـ نحاول أن نعرض للقصـة من خلال الاعـداد التى زخرت بها ، ومن خلال التتالى والتوافق اللذين يكتنفـان تلك الاعداد ، وبحسبنا أن نباشر هذا العرض :

أولا :

نقرأ جزءا من الآية الثانية والعشرين وهى التى تشكل جانبا اساسيا للقصة وتطرح التضارب الذى يعترى اقوال البشر عن عدد اصحاب الكهف وقصورهم فى معرفته :

(سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم . . . .) إننـا نلاحظ مباشرة تتالياً عدديا واضحا وتسلسـلا متناسقـا فى هذا الترتيب .

(ثلاثة واربعة ـ خمسة وستة ـ سبعة وثمانية)

(8+ 7- 6+ 5- 4+ 3)

876543 من اليمين الى الشمال او345678 من الشمال الى **اليمين أو عدًّا تنازلياً عكسياً مرتباً من الأكبر الى الأصغر فى كلا الاتجاهين .**

ثانيا :

نجد ان العدد الفردى او الأحدى او المفرد الذى لا ينقسم الا على نفسه او على واحد فقط ليكون حاصل القسمـة عددا صحيحا دون كسر هو العدد الذى يخص ذكر اصحاب الكهف انفسهم او البشر العاقلين :

(ثلاثة وخمسة وسبعة3 +5 +7)

واما العدد الزوجى او القابل للقسمة ويكون حاصل قسمته صحيحا فهو المخصص لذكر الكلب :

(رابعهم كلبهم ـ سادسهم كلبهم ـ وثامنهم كلبهم)
(اربعة وستة وثمانية4 +6 +8)

ثالثا :

اذا جمعنا الاعداد المخصصة لاصحاب الكهف وهى ثلاثة

وخمسة وسبعة 3 + 5 + 7 يكون حاصل الجمع العدد خمسة عشر 3 +5 +7 =15 ويصبح قابلا للقسمة إمّا على نفسه او على ثلاثة 3 أو خمسة 5 فاذا اضفنا اليه العدد ثلاثة 3 وهو ذكر الكلب ثلاث مرات يصبح حاصل الجمع ثمانية عشر 18 وهو حاصل جمع الاعداد الزوجية القابلة للقسمة والمخصصة لذكر الكلب :

(رابعهم كلبهم ـ سادسهم كلبهم ـ وثامنهم كلبهم ، اربعة وستة وثمانية 4 +6 +8 =18)

رابعا :

اذا جمعنا الاعداد جميعا يكون حاصل جمعها العدد ثلاثة وثلاثين 3 +4 +5 +6 +7 +8 =33 وهو عدد يقبل القسمة ويكون ناتجه دون كسور .

خامسا :

عدد نزول سورة (الكهف) او ترتيبها فى المصحف وهو ثمانية عشر 18 وعدد الآيات التى تناولت (اصحاب الكهف والرقيم) هو ثمانية عشر 18 من الآية التاسعة :

(أم حسبت أنّ اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا)

الى الآية السادسة والعشرين :

(قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض ابصر به واسمع ما لهم من دونه من وليّ ولا يشرك فى حكمه احدا) وعدد هذه الآيات وهو ثمانية عشر 18 هو نفسه مجموع الاعداد الزوجية التى خصصت لذكر الكلب 4 +6 +8 =18 كما يشكل مجموع الاعداد الفردية التى خصصت لذكر اصحاب الكهف 3 +5 +7 مع اضافة العدد 3 ثلاثة وهو عدد مرات ذكر الكلب فيكون حاصل الجمع 3 +5 +7 +3 =18

سادسا :

مجموع عدد آيات السورة هو عشر آيات ومائة 110 فاذا أردنا قسمته فانه يقبل القسمة ليكون الناتج صحيحا على العدد خمسة 5 وهو من الاعداد التى تخص ذكر اصحاب الكهف اى العاقلين فقط .

سابعا :

تنص الآية الخامسة والعشرون على بقائهم فى الكهف تسع سنوات وثلاثمائة سنة قمرية 309 (ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا) وهو عدد يقبل القسمة ليكون الناتج

صحيحاً على العدد ثلاثة 3 وهو من الاعداد التـى تخص ذكر اصحاب الكهف اى العاقلين فقط .

واذن فان عدد السنوات 309 وعدد الآيات 110 لا يقبـلان القسمة الا على العددين 3 و5 وهما عددان يخصان اصحـاب الكهف اى العاقلين دون سواهم .

ولله وحده ـ من قبل ومن بعد ـ العلم

المُتَنبّي .. و ..



(1) .. وَخُوْلَـةُ الحَمْدَانِيَّـة

من الثابت أن المتنبى قد (ملأ الدنيا وشغل النـاس) منـذ مولده فى محلة كندة بالكوفة ، وحتى مقتله يوم الأربعاء الثامن والعشرين من رمضـــان من عام354 هـ ، وفيما تلا ذلك من الأزمان والعهود وحتى اليوم .

ونعنى (بملئه الدنيا وشغله الناس) منذ مولده أن المتنبى كان يتجاهل فى شعره نسبه وقبيلته ـ على غير ما هو متبع عادة ـ ولا يشير الى والدته أو والـده أو جده ، وانمـا كان يتخـذ من هذا البيت الذى قاله ضمن ابيات احدى قصائده فى صباه :

لا بقومـــى شرفـــت بل شرفـــوا بى
وبنفسى فخـــرت لا بجدودى

دأبه فى حياته ، لنسبة الفخر الى نفسه والأعتداد بها أعتدادا يفوق حد الغرور حين يصر على أن يردد :

أنـا الـــذى نظـــر الأعمـــى الى أدبى
واسمعـــت كلماتـــى من به صمم
أنـــام ملء جفونـــى عن شواردهـــا
ويسهـــر الخلـــق جرّاهـــا ويختصم

أو يردد :

ومـــرهف سرت بـــين الجحفلـــين به
حتـى ضربـت ومـوج البحـــر يلتطم
فالخيل والليل والبيداء تعرفنى
والسيف والرمـح والقرطـــاس والقلم

أو حين ينعت الأمة التى عاش بينها بفساد التصرف لانهـا اعتبرته غريبـا ، أو جعلتـه يشعـر بذلك مثـل (صالـح) فى (ثمود) :

أنـــا فى أمـــة تداركهـــا اللـ
ـــه غريب كصالـــح فى ثمود

أو تمثله بالمسيح حين كان فى أرض (نخلة) كما يقول على لسانه نفسه ، واعتبار أهلها كاليهود فى اضطهادهم له :

ما مقامـى بارض نخلـــة الا
كمقـــام المسيح بـــين اليهود

ولكن الثابت أن والده كان يوصف (بعبدان السقاء) لأنه كان يسقى الماء لأهل محلته بالكوفة وفى ذلك ما فيه من حاجة الفقر التى عدها المتنبى نقيصه كبرى نغصت كبرياءه ، وتلك كلها نقاط ضعف خفية السبب او الأسباب فى حياة هذا الشاعر الصلف طباعا الحاد سلوكا ، فشكلت فى مجملها مغمزا استغله خصومه ليصفوه بالوضاعة وانحطاط المنشأ والنسب مما حدا (بابن لنكك البصرى) أن يهجوه عندما سمع بوجوده فى بغداد بعد عودته من مصر[1] .

لكن بغداد جاد الغيث ساكنها
نعالهم فى قفا السقاء تزدحم

أو يهجوه شاعر آخر بقوله :

أى فضل لشاعر يطلب الفضـ
ـل من الناس بكرة وعشيّا
عاش حينا يبيع فى الكوفة الماء
وحينا يبيع ماء المحيّا

---

(1) الحسن بن لنكك البصري من الشعراء الذين طعنوا على المتنبى وهجوه واستقبلوه استقبالا سيئا في كل مكان حلّوا فيه وحلّ هو به .

ولقد ظل المتنبى ـ طوال حياته ـ مستمسكا بهذا التجاهل فى غير استثناء الا نحو جدته لأمه (أم أمه) أو إبنه (محسد) الذى قتل معه عندما هاجمه نيف وثلاثون فارسا كمنوا له بقيادة (فاتك الأسدى) الذى جرد هذه (الحملة) انتقاما وثأرا لأبن أخته (ضَبّة بن يزيد) الذى أوجعه المتنبى هجاءً بقصيدته المسرفة فى الأفحاش التى يقولِ مطلعها :

ما أنصف القوم ضَبّة
وأمه الطرطبة !

واذا كان هناك من حاول أن يلبس تربص (فاتك الأسدى) بالمتنبى مسوحا سياسية فان الثابت الظاهر من ذلك التربص الذى كانت نتيجته دامية قاتلة ليس سوى رد الأهانة التى لم تلحق (بضبة بن يزيد) وحده ، وانما مست أمه ونسبه وقبيلته وكل المتصلين به ، ثم لينال (فاتك الأسدى) فى النهاية أحمال المتنبى ومراكبه وثروته التى كانت معه فى حراسة غلمانه ، وهو عمل فى مجمله يندرج فى قائمة الأعمال التى يمارسها قطاع الطرق .

ولقد غادر المتنبى مسقط رأسه الكوفة عام(316 هـ) قاصدا بغداد التى استقر بها ست سنوات ثم تركها بعدها الى الشام

مقيما فى عام(321 هـ) واذا كانت المصادر تجمع على زواجه وترجح أن يكون قد تم فى الشام نفسها عام(329 هـ) فان المتنبى يصر على تجاهل المرأة التى تزوجها والتى لا شك ولدت له ابنه (محسداً) .

وماتت أم المتنبى فى حداثته ، فلم يتأثر لموتها ولا سخر موهبته لرثائها بالرغم من أنه رثى آخرين بعيدين عنه رثاء مجاملة ، وكذلك كان نصيب والده فلم يقل فيه بيت رثاء واحدا وكأنَّ مجازاته له بالأهمال قد جرتها عليه كونه (سقاء) كان يبيع الماء فى الكوفة ، وقد استبدل المتنبى بذلك كله ذكره جدّته والأشادة بها وتسميتها بالأم ، فهو حين اعتقل وسجن فى الشام بتهمة أدعاء النبوه وانحراف التفكير ، وهى تهمة فيها أقوال وحولها شكوك ينتابها غموض يتحدث عن جدّته التى سماها أمه فيقول ..:

بيدى ايها الأمير الأديب
لا لشيء الا لأنى غريب
ولأم لها اذا ذكرتنى
دم قلب فى دمع عين يذوب

ويقول عنها فى احدى قصائده :

أمُنْسى السكون وحضرموتا
ووالدتي وكندة والسبيعا

ويتحسّر لفقدانها وقد ماتت دون أن تحظى برؤيته كما تمنت فيقول عنها فى قصيدته البليغة المؤثرة التى رثاها بها :

فوا أسفا أن لا أكبَّ مقبِّلا
لرأسك والصدر اللّذى مُلئا حزما
وأن لا ألاقى روحك الطيب الذى
كأن ذكى المسك كان له جسما
ولو لم تكونى بنت أكرم والد
لكان أباك الضخم كونك لى أمّا

ولعل الذى (يشغلنا) فى هذا المقام من الحديث عن المتنبى أن نتطرق الى نقطة هامة غامضة نراها من مكملات الغموض الذى أكتنف حياته واخفى وراءه كثيرا من الملابسات والعديد من الأسرار ، تجول بسببها فى الأمصار ؛ فى العراق والشام وفارس ومصر ، وجشم نفسه جم المتاعب ، واراق ماء حياته ووجهه من اجلها فى اغلب الأحيان فما نال منه الأرهاق ولا هدّه الجولان والسعى الحثيث بغير طائل يذكر الا المجد الفنى

والأدبـى حتـى قضى مقتـولا على يدى (فاتـك الأسـدى) وعصابته .

إن المتنبى يرسخ ذلك الغموض فيقول :

يقولـون ما أنـت فى كل بلدة
وما تبتغى ؟؟ ما أبتغى جل أن يُسْمى

وتستلقى تلك النقطة الهامة الغامضة فى سيرة المتنبى امامنا على هيئة اسئلة حائرة :

● من المرأة التى تزوجها المتنبى ؟ ؟

● وما سبب تعلقه بسيف الدولة الحمدانى تعلقا لا يحيطه وصف ولم يحظ به غيره ممـن اتصـل بهـم المتنبـى من الحـكام والولاة والأمراء واصحاب السلطان ؟؟

● وما سبب رثائه لأخت سيف الدولة الكبـرى (خولـة) الملقبة (بست الناس) بقصيدته التى تعـد من مراثيه النـادرة بلاغة وحرارة عاطفة وصدقا فى التأثر والتأثير ؟ ؟

وتبقى مسألة زواجه معلقـة ، ليـس عليهـا من دليل قائم

الا ابنه (محسد) الذى ذكره باسمه دون غيره من ابنائه الذين تشوق اليهم فى اشعاره[1] .

ولقد ماتت (خولة) أو (ست الناس) اخت سيف الدولة عام (352 هـ) ومات المتنبى بعدها بعامين مقتولا ـ كما سبق أن ذكرنا عام(354 هـ) وتزوج المتنبى فى الشام عام(329 هـ) ومعنى ذلك أن زواجه دام خمسة وعشرين عاما ، فإذا أنهينا هذا الزواج بموت (خولة) يكون قد دام ثلاثة وعشرين عاما .

ونحن حينما ننهى فترة زواجه بموت (خولة) نشير الى احتمال قيام ذلك الزواج بصفة سرية بين المتنبى و (خولة) .

اليس ذلك جائزا ؟؟ .

على الرغم من أن الأمراء والحكام يعجبون بشعرائهم حين يمدحونهم ، وقد تقوم بينهم صداقات وطيدة ، ولكنها لا تصل حدَّ المصاهرة ، لأن هؤلاء الشعراء يبقون فى انظارهم مجرد أدوات للمديح والأشادة بالمفاخر والأنتصارات .

---

(1) راجع : سيرة المتنبى ص 66 في الترجمة التى اثبتها البرقوقى للمتنبى فى شرح ديوانه وهى منقولة بتصرف كبير عن (ذكرى المتنبى) (للدكتور عبد الوهاب عزام) وهو من الذين عنوا عناية كبيرة بتحقيق ديوانه ودراسة شعره والبحث في سيرته وحياته .

ولكن المتنبى ليس كجميع الشعراء .

هو شخص آخر يختلف عنهم ، يحمل طموحه بين جوانحه وفى شعره ، ويفصح عن أهدافه السياسية ، وتعلقه بها فى أكثر من موضع من قصائده ، وأمام الذين مدحهم صراحة ودون أى تورية أو موار بة .

* اليس ذلك جائزا ؟؟

ألا يكون المتنبى قد استهوى (خولة) واغراها بعبقريته الشعرية وفصاحته واعتداده بنفسه ، فأحبته وتزوجته ، وفى قصور الملوك والأمراء والحكام حوادث مشابهة ، وفى اقبيتها ومقاصيرها كان يحدث أكثر من ذلك ، يتعدى حدود الزواج وليس من نتيجة أى زواج أو ارتباط علنى .

* اليس ذلك جائزا .

وحين تناهى الى سمع سيف الدولة قبل به وابقاه مخفيا عن الغرباء من غير الحمدانيين واتباعهم وانصارهم .

* كل ذلك جائز .

* وقد أنبأنا التاريخ بما هو أعجب منه وأغرب وننظر فى قصيدة المتنبى التى رثى بها (خولة) فيستهلها بهذا المطلع :

المطلع :

يا أخت خير أخٍ يا بنت خير أبِ
كناية بهما عن أشرف النسبِ

وفى البيت الثانى منها مباشرة يترفع بها عن أن تُسمَّى ، وأنْ بصدق هو أنها ماتت فيقول لها :

أجلُّ قدرتك أن تُسمى مؤبَّنةً
ومن يصفْكِ فقد سماك للعرب

ويكذب نفسه أن تصدق أنها ماتت فعلا ويتعلق بآمال واهية فيقول فى البيت السادس :

طوى الجزيرة حتى جاءنى خبرٌ
فزعت فيه بآمالى الى الكذب

ولكن تلك الآمال خابت :

حتى اذا لم يدْع لى صدقهُ املا
شرقتُ بالدمع حتى كاد يشرق بى

ويسترسل فى وصف مدى حزنه عليها وصفا لا يصدر الا عن متعلق شخصيا بها مشدود اليها بأشواق واضحة :

تظــنُّ أن فؤادى غــير ملتهب
وان دمــع جفونــى غــير منسكب
بلى وحرمــة من كانــت مراعية
لحرمــة المجــد والقصــاد والأدب
ومــن مضـــتْ غــير موروث خلائقها
وان مضــت يدهــا موروثــة النشب
وهمهــا فى العلى والمجــد ناشئة
وهــم أترابهــا فى اللهــو واللعب
يعلمــن حــين تُحَيَّا حســن مبسمها
وليس يعلــم الا الله بالشنب
مسرة فى قلــوب الــطيب مفرقها
وحسرة فى قلــوب البيض واليلب

ويستغرقه اطراؤها فينسى الغرض من وراء رثائها :

ولا ذكرت جميلا من صنائعها
الا بكيت ولَا ودّ بلا سبب

ويحاول أن يراوغ ، فيصفها بالمنعة والصعوبة فى الوصول اليها حتى بالتحية المباشرة ، وهــو يقصــد عكس ذلك تمامــا

بالنسبة له على الأقل أو هو يعنيه وقد ورد على لسانه سهوا منه فيقول :

قد كان كلّ حجـاب دون رؤيتها
فما قنعـتِ لهـا يا أرض بالحُجب
ولا رأيت عيون الأنس تدركهـا
فهـل حسـدتِ عليهـا أعـين الشهب
وهــل سمعــت سلامـا لى ألـمَّ بها
فقـد أطلـتُ ومـا سلَّمـتُ من كثب

ونعود الى تعلق المتنبى بسيف الدولـة ، مدحـه واشـاد به واغـراق فى المديح والأشـادة ، وكان يرجّـى أن يوليه ولاية أو إمـارة ، ولكنـه لم ينـل منـه أياً من ذلك ، واحتـدم الخصام بينهما ، فكان فراقاً وقطيعـه ، ولـكنّ المتنبـى ظل على ذلك التعلق محافظاً ، لم يبلـغ به اليأس مبلغـه النهائـى ، فان هو قد بلغه فعلا وهذا ما يبدو أنه حدث ، فلا شك أن خيطا أو خيوطا أخرى كانت تشده اليه ، لعلهـا خيوط التعلـق بأختـه (خولة) وحبه أو زواجه منها على ابعد الأفتراضـات المعلّقـة الحائرة .

ولقد أرسل المتنبى من قلبه ووجدانه قصيدته التى عاتب بها سيف الدولة:

واحــرَّ قلبــاه ممــن قلبــه شبم
ومــن بجسمــى وحــالى عنــده سقمُ

وهناك قصة تروى عن إنشاد المتنبى إيّاها أمام سيف الدولة وبحضور ابن عمه (أبى فراس) وقد قيل عنهـا أنهـا ملفقـة ومنحولة وبعيدة عن الصدق ومغرقة فى الخيال ولكنها على ضوء نفس المتنبى الذى اتخذ من الغاية مبرراً للوسيلـة التـى يتبعها لبلوغ اهدافه رغم اهانته نفسه واذلال غيره إيّاه مبدأً سار عليه في حياته رغم تعاليه وكبره ، نستطيع ألاَّ نستعبد احتمال تصـديق تلك القصة التى تعكس لنا جانبا من حياة المتنبى نضعه ـ هنا ـ لتدعيم الأفتراض بأنه تحمل الأهانة والاذلال من سيف الدولة وفى مجلسه من أجل (خولـة) هذه المرة ، وقـد بات أملـه فى الولاية أو الأمارة بعيد المنال بل مستحيلا ، وتسير القصة ـ كما ترويها لنا المراجع والمصادر الأدبية على هذا المنوال : [1] .

---

(1) راجـع : ـ (النقـد المنهجـى عنـد العـرب) ص165 -166 -167 واغلب الكتب التى تصدت للدفاع عن االمتنبى او الهجوم عليه .

« قال أبو فراس لسيف الدولة :

« إن هذا المتشدق كثير الأدلال عليك . وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد ويمكن أن تفرق مائتى دينار على عشرين شاعرا يأتون بما هو خير من شعره ، فتأثر سيف الدولة من هذا الكلام وعمل فيه وكان المتنبى غائباً ، وبلغته القصة فدخل على سيف الدولة وأنشد قصيدته :

الا ما لسيف الدولة اليوم عاتبا
فداه الورى أمضى السيوف مضارباً

حتى اذا انتهى اطرق سيف الدولة ولم ينظر اليه فخرج المتنبى من عنده متغيرا وحضر أبو فراس وجماعة من الشعراء فبالغوا فى الوقيعة بحق المتنبى ، وانقطع ابو الطيب بعد ذلك فنظم القصيدة التى اولها :

واحرَّ قلباه ممن قلبه شبم
ومن بجمسى وحالى عنده سقمُ

فلما وصل فى انشاده قوله :
يا اعدل الناس الا فى معاملتى
فيك الخصام وانت الخصم والحكم

قال أبو فراس :

مسخت قول دعبل وادعيته وهو :

ولستُ أرجـو انتصافـا منـك ما ذرفت
عينـى دموعـا وأنـت الخصـم والحكم

فقال المتنبى :

أعيذهــا نظــرات منــك صادقة
أن تحسب الشحم فيمـن شحمـه ورم

فعلم أبو فراس انه يعنيه فقال : ومن أنت يا دعيَّ كندة حتى تأخذ اعراض الأمير فى مجلسه فاستمر المتنبى فى إنشاده ولم يرد عليه الى أنْ قال :

سيعلــم القــوم ممــن ضم مجلسنا
بأننـــى خـــير من تسعـــى به قدم
أنـــا الـــذى نظــر الأعمـــى الى أدبى
واسمعـــت كلماتـــى من به صمم

فزاد ذلك أبا فراس غيظا وقال : قد سرقت هذا من عمرو بن عروة بن العبد فى قوله :

أوضحت من طرق الآداب ما اشتكلت
دهــرا واظهــرت اغرابــا وابداعا
حتـى فتحـت باعجـاز خُصصـت به
للعمــى والصــم ابصــارا واسماعا

ولما وصل إلى قوله :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى
والسيف والرمح والقرطـاس والقلم

قال أبو فراس : وماذا ابقيت للأمـير اذا وصفـتَ نفسـك بالشجاعة والفصاحة والرئاسة والسماحة ، تمـدح نفسـك بما سرقته من كلام غيرك وتأخذ جوائز الأمير ؟؟ اما سرقت هذا من قول الهيثم بن الأسود النجفى الـكوفى المعـروف بأبـن عريان العثمانى .

أعاذلتــى كم مَهْمـهٍ قد قطعته
أليف وحــوش ساكنــا غــير هائب
أنا ابن العلا والطعن والضرب والسرى
وجــود المذاكى والقنــا والقواضب
حليم وقــور فى بلاد وهيبتى
لهـا فى قلـوب النــاس بطش الكتائب

فقال المتنبى :

ومـــا أنتفـــاع أخـــى الـــدنيا بناظره
اذا استـــوت عنـــده الأنـــوار والظلم

قال أبو فراس : وهذا سرقته من قول العِجْلى :

اذا لم اميز بـــين نور وظلمةٍ
بعينـــىَّ فالعينـــان زور وباطل

وغضب سيف الدولـة من كثـرة مناقشتـه فى هذه القصيدة وكثرة دعاويه فيها فضربه بالدواة التى بين يديه فقال المتنبى فى الحال :

إن كان سرَّكمُ ما قال حاسدنا
فما لجـــرح اذا ارضـــاكمُ الم

فقال : أبو فراس : أخذت هذا من قول بشار :

إذا رضيتـــم بأن نُجفـــى وسرَّكمُ
قـــول الوشـــاة فلا شكوى ولا ضجر

فلم يلتفت سيف الدولة الى ما قال أبو فراس وأعجبه بيت المتنبى ورضى عنه فى الحال وأدناه اليه وقبل رأسه وأجازه بألف

دينار ثم أردفه بألف أخرى » .

● تلك هى القصة فى تفاصيلها ، سواء كانت ملفقة وموضوعة ،أم كانت عكس ذلك وان خالطتها مبالغة مفتعلة ، فإن الذى يعنينا أن المتنبى وقد يئس من تحقيق طموحه لدى سيف الدولة كان متمسكا به من أجل غرض آخر دفين ، قد يكون زواجه من أخته (خولة أو ست الناس) - رضى به أم كرهه ، فاحتمل الأمير شاعره على تعاليه وعجرفته ، وقبل الشاعر بأميره على تخييبه آماله السياسية ، ومن أجل ذلك وفي سبيله يتغاضى كل منهما عن سقطات الآخر قبولا بأمر واقع لا مفر منه .

● ونضيف الى ما ذكرنا ما قاله أبو فراس لابن عمه سيف الدولة عن تفضيله المتنبى على شعراء كثيرين غيره واجازته بثلاثة آلاف دينار مقابل ثلاث قصائد يمدحه بها كل عام .

● الم تكن تلك الدنانير بآلافها الثلاثة نوعا من الجرايات التى يمنحها الملوك والأمراء لافراد اسرهم . . . وقد دأب سيف الدولة على اعطائها المتنبى كل عام بصفته واحدا من المحسوبين على أسرة الأمير بسبب تلك المصاهرة المفترضة أو المزعومة ؟!

* فهل كانت حقا ثلاث قصائد من المتنبي تساوى ثلاثة آلاف دينار ؟؟

* ام انها هبة من الأمير مقابل العلاقة القائمة بينه وبين أخته وهى علاقة زواج ومن ثم مصاهرة وان تمت كرها واجبارا ؟؟

* إنه سؤال لا نملك جوابه على كل حال حتى الآن !!

ثبت ببعض المراجع

أ ـ ديوان المتنبى .

(طبعات متعددة متداولة) .

ب ـ شرح ديوان المتنبى مع سيرته بأقلام بعض معاصريه .

عبد الرحمن البرقوقى .

(طبعة مصورة ـ دار الكتاب العربى ـ بيروت ـ لبنان ـ دون تاريخ)

جـ ـ مع المتنبى .

د . طه حسين .

(عدة طبعات منها طبعة لدار المعارف ـ مصر ـ دون تاريخ) .

د ـ النقد المنهجى عند العرب د . محمد مندور .

(دار نهضة مصر للطبع والنشر ـ مصر ـ دون تاريخ)

(2) وَتجنّيهِ على كافور

كانت نفسية المتنبى المتأزمة على الدوام ، وطموحاته الواسعة فى بلوغ مراتب الولاة والحكام ، ثم من قبل هذا وذاك معاً ، نزوعه الى التعالى على غيره من الشعراء والأدباء ، واحتقاره إيّاهم ، من أهم الأسباب التى شحنتهم ضده بمشاعر الحقد والعداء ، فامتلأوا بهما نحوه فى كل مكان كان يلقاهم فيه او تصلهم اخباره وقصائده به .

فالمتنبى يرى فى الشعراء الآخرين هذا الرأى الذى يبديه بقوله :

أفى كل يوم تحت ضبنى شويعر
ضعيف يقاوينى قصير يطاول

وهو يحس بأنهم يكرهونه لأنه أسلف لهم الكراهية ، فيعترف بذلك قائلا :

أرى المتشاعـرين غروا بذمى
ومـن ذا يحمـد الـداء العضالا

ومـن يك ذا فم مر مريض
يجـد مُرًّا به الماء الزلالا

وحينما يحاول المتنبى ترميم ما انهار بينه وبين « سيف الدولة الحمدانى » من جسور كانت مقامة على صداقة حميمة ومودة ، لا يتأخر مطلقا فى أن يتوجه اليه بقصيدته الميمية الشهيرة مستهلا مخاطبته بهذا المطلع الذى يصفه فيه ببرود القلب :

واحـر قلبـاه ممـن قلبـه شبم
ومن بجسمى وحـالى عنـده سقم

ولكن المتنبى رغم غربته المتواصلة ، قلقا غير مستقـر بـين الكوفة وبغداد والشام ومصر وفارس وغيرها من المناطق التـى تنقل بينها ، ورغم اعتداده بنفسه اعتدادا يذهـب به الى حد يفوق الغرور فى بعض الاحيان ، يطالعنا بين الوقت والآخر ، بوجه حزين وقلب معذب ، فمن خلال قصيدته التى اطلقها قبيل رحيله من مصر بيوم واحد فى عام (350 هـ) مكرراً بها تعريضه الموجع (بكافور الاخشيدى) المشهورة بمطلعها :

عيد بأية حال عدت يا عيد
بما مضى أم بأمر فيك تجديد

نلاحظ حزنه وعذابه واضحين فى خمسة ابيات متتالية تحمل كل معانى الضعف الذى يعترى الذات الانسانية ويفصح عن حقيقتها حين يجد صاحبها نفسه وحيداً فاقداً كل ما يرجوه مصاباً بخيبة أمل كبيرة فى الدنيا والناس معاً فيقول :

لم يترك الدهر من قلبى ولا كبدى
شيئاً تتيمه عين ولا جيد
يا ساقيىَّ أخمر فى كؤوسكما
أم فى كؤوسكما هم وتسهيد
أصخرة أنا مالى لا تحركنى
هذى المدام ولا هذى الاغاريد
اذا أردت كميت اللون صافية
وجدتها وحبيب النفس مفقود
ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه
أنّى بما أنا باك منه محسود

غير أن هذا الشاعر المسرف فى ايلام الذين يهجوهم كان مسرفا ايضا فى مديحه مغاليا فى اسباغ صفات البطولات الخارقة

على ممدوحيه ، ولكنه لا يألو جهدا فى ادعاء البطولات الوهمية لنفسه مقدماً إيّاها على غيره ، إلا أننا لا نحسبه كان يقطع ما قطع من المسافات الطويلة فى البلاد البعيدة إلا فى ظل حراسة مشددة أتاحها له يسر حاله وغناه الذى جلبه عليه شعره ، فهو لديه الغلمان المسلحون الذين كان بعضهم معه حين طلع عليه « فاتك الأسدي » خال « ضبة بن يزيد » مع رجاله بينما كان المتنبى فى طريقه الى بغداد قاصدا الكوفة فى عام(354 هـ) والذين قتلوا معه ايضا بعد أن فاقهم « فاتك » عددا وسلاحا .

بل ان المتنبى ـ كما تقول الروايات ـ حاول الفرار ناجيا بنفسه من قبضات فاتك ورجاله ، الا أن غلاما من غلمانه صاح فيه أوتفر وأنت القائل :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى
والسيف والرمح والقرطاس والقلم؟؟

فقاتل (كبطل مكره على الصمود والقتال) حتى قتل .

ولكن الذى يعنينا فى هذا الجانب من حياة المتنبى ، ما يخص « كافورا الاخشيدى » فقد تحامل المتنبى على هذا الرجل تحاملا مغرضا ، وتجنى عليه تجنياً فادحا من دون ذنب مباشر جناه بارتكابه تجاهه ، سوى أنه لم يحقق له رغباته السياسية التى كان

ينشدها من وراء وفوده عليه فى مصر والتقرب اليه بالثناء والمديح ، تلك الرغبات التى لم يكن المتنبى ـ على كل حال ـ مهيأ لها او ممهدا لبلوغها بعلاقاته المتوترة المتقلبة مع كل القادرين على تحقيقها له ، بالاضافة الى ان نظرة ممدوحيه اليه من الامراء والولاة والحكام بمن فيهم سيف الدولة وكافور لم تكن تتعدى نظرة الاعجاب بشاعر كبير ، وقصيدة مدح منه كفيلة بذيوع صيت الذى تقال فيه .

لقد كانوا يرون فيه خير داعية لهم اذا كان راغبا ، وكانوا يخشون لسانه اذا كان متحفزا ومستفزا ، حتى أن شاعرا من الذين تأثروا له حين قتل ـ وهم قلة ـ لم يجد شيئا لافتاً ينعاه فيه غير ذلك اللسان فقال :

لا رعـى الله سرب هذا الزمان

اذ دهانا فى قتـل ذاك اللسان

وكان المتنبى ـ وحده ـ الذى رسم تلك الصورة القاتمة لكافور فى كتب الادب والتراجم والسير ، والتاريخ كذلك ، فلم يكن كافور الا ذلك (العبد الاسود الخصي) فى نظر المتنبى

الحاقد عليه فأفحش فى وصفه فى أكثر من موضع فى شعره كما نرى فى مثل هذه الأبيات التى اشار فيها الى ان كافورا لم يتسلم حكم مصر الا نتيجة لتآمره على (الأخشيد) وقتله بعد ذلك :

من كل رخـو وكاء البطـن منفتق
لا فى الرجـال ولا النسـوان معدود
أكلما اغتـال عبـد السـوء سيده
أو خانـه ، فلـه فى مصر تمهيد
صار الخصى امـام الآبقـين بها
فالحـر مستعبـد والعبـد معبود
نامـت نواطـير مصر عن ثعالبها
فقـد بشمـن ومـا تفنـى العناقيد
العبـد ليس لحـر صالـح بأخ
لـو انـه فى ثياب الحـر مولود
لا تشتـر العبـد الا والعصـا معه
إنَّ العبيد لانجـاس مناكيد
ما كنـت احسبنـى احيا الى زمن
يسىء بى فيه كلـب وهـو محمود

تلك هى ـ اذن ـ ملامح من صورة كافـور حـين نظـر اليه المتنبى بعين السخط ، ولكنه بدا على هيأة اخرى مغايرة تماماً حين نظر اليه بعين الطمع الراضية ، فقال فيه ـ مثلا ـ مهنئاً إيّاه بدار جديدة بناها :

انمـا التهنئـات للأكفاء
ولمن يدنـى من البعداء
وانـا منـك لا يهنـىء عضو
بـالمسرات سائـر الاعضاء

وبالغ فى رفع مكانته فقال فى نفس القصيدة :

انـت أعلى محلـة ان تهنّى
بمـكان فى الارض او فى السماء
ولَك النـاس والبـلاد ومـا يسـ
ـرح بـين الغبـراء والخضراء

وقال :

انمـا يفخـر الـكريم ابـو المسـ
ـك بمـا يبتنـى من العلياء
وبايامـه التـى انسلخـت عنـ
ـه ومـا داره سوى الهيجاء

وبما أثرت صوارمه البيـ
ـض له فى جماجم الاعداء
وبمسك يكنى به ليس بالمسـ
ـك ولكنه اريج الثناء

وقال عنه :

يدبر الملك من مصر الى عدن
الى العراق فأرض الروم والنّوب

وقال :

الى الذى تهب الدولات راحته
ولا يمن على آثار موهوب

وقال :

وكيف اكفر يا كافور نعمتها
وقد بلغتك بى يا كل مطلوبى
يا أيها الملك الغانى بتسمية
فى الشرق والغرب عن وصف وتلقيب
أنت الحبيب ولكنى أعوذ به
من أن أكون محبا غير محبوب

وقال له :

واخــلاق كافــور اذا شئــت مدحه
وان لم اشــأ تملى علىّ وأكتب

اذا ترك الانســان أهــلا وراءه
ويمــم كافــورا فما يتغرب

فتــى يمــلأ الافعــال رأيا وحكمة
ونــادرة أحيان يرضى ويغضب

اذا ضربــت فى الحــرب بالسيف كفه
تبينــت أن السيف بالــكف يضرب

تزيد عطــاياه على اللبــث كثرة
وتلبــث أمــواه السحــاب فتنضب

ولكن المتنبى يذل نفسه ويحتقرها حين يرضى بأقل القليل من كافور ، حتى لو كان ذلك فضلة كأسه ، فيقول له :

أبا المسك هل فى الـكأس فضـل أناله
فانــى أغنّــى منــذ حــين وتشرب

وهبــت على مقــدار كفــى زماننا
ونفسى على مقــدار كفيك تطلب

اذا لم تنــط بى ضيعــة أو ولاية
فجــودك يكسونــى وشــغلك يسلب

وغير هذا كثير مدحه به مدحاً مسرفاً مبالغاً فيه ، على الرغم من أن كافوراً يستحق بعضه لعصاميته الذكية ، وللظروف التى واتته فاغتنمها بكل مهارة مناسبة ، وارتقى سدة الحكم فى مصر :

* فقد كان كافور مولى أسود من موالى (محمد بن طغج الاخشيد) الذى كان واليا على دمشق من قبل (المقتدر بالله) العباسي وعندما صار (الراضى بالله) خليفة من بعده أضاف الى (ابن طغج) ولاية مصر ، ومنحه لقب الاخشيد .

وكما تقول الروايات[1] فان الاخشيد اشترى كافورا بثمانية وعشرين دينارا من بعض رؤساء مصر ، واعتقه وقربه اليه وجعله من كبار قادته العسكريين ثم قائدا لجميع جيوشه ، وعندما مات الاخشيد أخذ كافور البيعة لابنه (انوجور) فى دمشق وعاد به الى مصروفى عام(349 هـ) مات (انوجور) فتمكن كافور من تولية اخيه (على) محله بموافقة الخليفة (المطيع بالله) العباسى مبقيا الامر للاخشيديين متخذاً من

---

(1) راجع : سيرة المتنبى ، تلخيص (هلال شتا) نقلا عن كتاب (ذكرى المتنبى) للدكتور عبد الوهاب عزام ، وهو الملخص الملحق بشرح ديوان المتنبى لعبد الرحمن البرقوقى - جـ1 - دار الكتاب العربى - بيروت - لبنان (دون تاريخ) .

تسليم الحكم (لانوجور وعلى) ابنى الاخشيد ستارا يتخفى وراءه كحاكم فعلى لمصر حيث استتبت له الاوضاع نهائيا بموت (على) فى عام(355 هـ) فبقى على ولاية مصر حتى توفى فى مطلع عام(357 هـ) بعد ان ظل حاكما لمصر وقسم من الشام اثنتين وعشرين سنة .

* ولقد استطاع كافور ان يسلس لنفسه حكم مصر ، وان يجعل قسما من الشام تابعا لحكم الاخشيديين ، حين قاد الجيوش وعقد صلح « الذى اوشك على النصر » مع سيف الدولة الحمدانى على ان تبقى دمشق للاخشيد رغم طموحاته فى افلاتها من سيطرة الاخشيديين بوفاة (محمد بن طغج) .

* وكان لرجاحة عقل كافور وحسن تدبيره فى قيادة الجيوش وحبه للادباء والشعراء واهل العلم الحافز الذى شجع الاخشيد على ان يوكل اليه مهمة الاشراف على تربية ابنيه (انوجور وعلى) واختيار من يقومون بهذا نيابة عنه ، وكان نجاح كافور فى ذلك سببا فى حرصه - فيما بعد - على ان يمنح نفسه لقب (الاستاذ) وان يضربه على العملة التى اصدرها للتداول فى ذلك الوقت(1) وقد اشار المتنبى الى هذا اللقب وذكره فى بعض

---

(1) راجع : مقال (سمير شما) (رؤية جديدة لحكم الاستاذ كافور) مجلة العربى - الكويت (العدد222 مارس1978 م) .

شعره الذى مدحه به اما مباشرة او من خلال مدحه بعض وزرائه من امثال (مساور بن محمد الرومى) الذى قال المتنبى يمدحه ويمدح كافورا بمدحه :

أمساور أم قرن شمس هذا
أم ليث غاب يقدم الاستاذا ؟

أو حين قال :

ترعرع الملك الاستاذ مكتهلا
قبل اكتهال أديبا قبل تأديب

ثم اشار الى حنكته وتهذيبه :

مجربا مهمها من قبل تجربة
مهذبا كرما من غير تهذيب

*ولكن ، ومع كل هذه العيوب التى قلما اجتمعت فى حياة شاعر مثل المتنبى ، فانه يبقى وحده (الشاعر الذى ملأ الدنيا وشغل الناس) دون منازع .

(3) .. والأحكام المتجرّدة !

تفرد المتنبى ـ فى جملة ما تفرد به من خصائص ومميزات ـ بكثرة شراحه وتعدد الذين تصدوا لشعره اما نقدا مغرضا ، او مديحا منحازا ، مما شكل فى مجموعه اكبر ضجة أدبية يحظى بها شاعر ، وما تزال اصداؤها تتردد مدوية .

واحتدم الصراع حول المتنبى ، واشتدت الخصومات التى كانت ـ فى غالبيتها ـ تحركها الدوافع الشخصية نحو هذا الشاعر المتصلب المتعجرف الذى كثر حاسدوه والمتحاملون عليه كما تعدد المعجبون به والمنحازون اليه .

وبالرغم من كل ذلك فان الذين تتبعوا سقطاته اللغوية ومآخذه الفنية ، لم يكونوا قادرين على اخفاء اعجابهم به وتأثرهم بآثاره التى انتشرت فى الافاق وفى كل اتجاه منها ، وكان

(الصاحب بن عباد)[1] واحدا من هؤلاء ، فقد تمنى ان ينضم المتنبى اليه فى مجالسه الأدبية الخاصة فى (اصفهـان) قبـل ان يصبح وزيرا لدى (البويهيين) الذين تواتروا على توزيره منذ خلافة (مؤيد الدولة ابى منصور ابن بويه) فكتب اليه يلوّح له بالقدوم عليه ، ولكن المتنبى رفضه وسخر من طلبه بل لم يجشم نفسه مشقة الرد على رسالته التى بعث بها اليه ، لأن الصاحب - فى نظره - كان خامل الذكر ولا يشكل عاملا مغريا يسعى إليه محـاولا تحقيق طموحاتـه السياسية المعروفـة ، وحينئـذ اعتبـر الصاحب اهمال المتنبى رغبته اهانة كبيرة فحفظها له وردها اليه بكتابة رسالته المشهورة فى تتبع زلاّته واخطائه الشعرية ، ومع ذلك فان رسائل الصاحب الادبية الاخرى كانت تحمل روح

---

(1) انظر هذا الرأى أيضاً في (النقد المنهجى عند العرب) د. محمد مندور - ص212 213 عن « الصبـح المبنـى عن حيثية المتنبـى » ليوسف البديعـى والبديعى (م1073 هـ -1662 م) أديب وشاعر من دمشق ، اشتهر فى حلب وله بالإضافة الى (الصبح المبنى) عدة كتب منها (هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام) و (أوج التحْرى عن حيثية أبى العلاء المعرى) . انظر : خير الدين الزركلى (الأعلام) ط4 لبنان ، بيروت ، دار العلم للملايين1979 م .

والصاحب هو (ابو القاسم ، اسماعيل بن ابى الحسن عباد الطالقانى) وراجع اخباره مفصلة فى (معجم الادباء) لياقوت جـ6 ص168 وما بعدها - طبعة دار احياء التراث العربى - بيروت - لبنان - (دون تاريخ) .

التأثر بالمتنبى والاعجاب به حتى انه فى رسالتين فقط من رسائله تلك تمثل بثلاثة ابيات له ، منها قوله فى الرسالة الاولى :

حتـــى أتـــى الـــدنيا ابـــن بجدتها
فشـــكا اليه السهـــل والجبل

وقوله :

تذكرت ما بـــين العـــذيب وبارق
مجـــر عوالينـــا ومجـــرى السوابق

وقوله فى الرسالة الثانية :

ولله سرّ فى علاك وانما
كلام العـــدا ضرب من الهذيان

وكان (ابو العلاء المعرى) من ابرز المعجبين بالمتنبى الذى لم يكن معاصرا له فَقد ولد بعـد تسـع سنـوات من وفاتـه فى عام(354 هـ) ، وحسبنا أن ابا العلاء وضع شرحا لشعر المتنبى سماه (اللامع العزيزى) كما شرح ديوانه كامـلا وسمـى هذا الشرح (معجز أحمد) ، وكان ابو العلاء اذا قرىء امامه بيت المتنبى الذائع الصيت :

أنـــا الـــذى نظـــر الاعمـــى الى ادبى
واسمعـــت كلماتـــى من به صمم

لا يتمالك ان يصيح ـ كما تزعم الروايات ـ من فرط الاعجاب به وبنفسه (أنا الاعمى . . انا الاعمى) مفاخرا وزاعما أنه المعنيُّ بذلك البيت دون غيره من الناس الذين اهتموا بشعر المتنبى وتولوه بالشرح والدراسة .

واذا كانوا قد قالوا عن المتنبى إنّه شاعر يتفلسف وعن ابى العلاء إنّه فيلسوف يتشاعر ـ وهما قولان يجب الا يؤخذا على عواهنهما دون نظر ـ ادركنا سرّ اعجاب ابى العلاء بالمتنبى الذى اعتبره استاذه الروحي ـ لانعدام عامل المزامنة ـ وادركنا ايضا مدى العلاقة النفسية التي شدته اليه وربطته به ، تلك العلاقة التى كان أهم قاسم مشترك فيها حقد المتنبى على الدنيا والناس الذين لم يساعدوه على تحقيق تطلعاته السياسية ولم يمكنوه من بلوغ مآربه منها ومنهم ، هذا من جهة ، ثم من جهة أخرى عزوف ابى العلاء عن الدنيا وعن الناس ، وزهده فيها وفيهم بسبب من فقدانه بصره وشعوره بضعفه الذى منعه ، او لم يكن ليؤهله لدخول حلبات الصراع على المكاسب التى كان ينشدها المتصلون باصحاب السلطة من الشعراء والأدباء فانكفأ أبو العلاء على نفسه مع موهبته الفذة وكتبه واشعاره وفلسفته يقوم على خدمته غلام ـ ربما كان هو كل صلته بالعالم الخارجى

من حوله ـ يناوله مستلزماته وحاجاته ، مردداً في عزلته قوله المشهور الذي يعكس موقفه السلبي من الحياة ومن الناس :

هذا جناه أبي عليّ
وما جنيت على أحد

وتتالى الشراح والمفسرون لاشعار المتنبي والمتتبعون « لسرقاته » الفنية والزعم عليه بنقله لحكمه وامثاله من الفلسفة اليونانية والتراث الاغريقي (1) فكان منهم (ابن جنّى) ـ وهو اول من شرح المتنبي ـ و (ابن الشجرى) و (ابن وكيع) و (العكبرى) و (ابو بكر الخوارزمي) وغيرهم كثيرون ، وكان (الخوارزمي) شاعرا ولغويا واسع العلم وراوية وعلى دراية كبيرة بالانساب ، ومما يروى عنه ـ ونضع هنا اعتبارا للمبالغات المعروفة ـ أنه قصد الى منطقة (أرجّان) يريد الصاحب بن عباد الذي الزم نفسه الا يقابل من الادباء الا من كان يحفظ عشرين الف بيت من اشعار العرب ، فلما دخل عليه حاجبه يستأذن للخوارزمي ، أمره الصاحب بأن يعلمه بهذا الالتزام ،

---

(1) ويرى معظم الذين تناولوا هذا الجانب عند المتنبي انه نقل عن (ارسطو) اكثر من غيره ، وذلك بعد ترجمة اعماله الى اللغة العربية وانتشارها في ذلك الوقت .

وكان الخوارزمى لم يفصح عن اسمه بعد ، فطلب من الحاجب ان يسأل الصاحب ان كان هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء ، وحينئذ قال الصاحب : هذا لا يكون الا الخوارزمى وامر بادخاله واكرمه ؟!

وقيضت الاقدار للمتنبى ، اديبا من الذين انصفوه ، وانتصفوا لمكانته الادبية ، هو القاضى (الجرجانى) [1] الذى وضع كتابه (الوساطة بين المتنبى وخصومه) تلك الوساطة المنطقية التى حوت من النظرات الثاقبة والاحكام المتمعنة ما يجعلها على رأس قائمة الكتب التى فتحت للنقد الادبى العربى ونظرياته ابوابا واسعة فى وقت مبكر جدا ، ووضعت معايير ومقاييس ادبية لا يزال لمعظمها اعتبارها المفضل على غيره .

وحسبنا فى القاضي الجرجانى ان قاضيا اديبا موهوبا مثله يضع منذ حوالى عشرة قرون من الزمان أسسا لا تزال ثابتة

(1) هو (ابو الحسن على بن عبد العزيز بن الحسن بن على بن اسماعيل) ، واشتهر بالقاضي الجرجانى نسبة الى (جرجان) التى ولد فيها . تولى القضاء مرات عديدة ومنه اكتسب لقب القاضي كذلك . و (الوساطة) لها طبعات متداولة منها التى حققها وشرحها (محمد ابو الفضل ابراهيم وعلى محمد البجاوى) مصر ـ دار احياء الكتب العربية ـ ط3 ـ دون تاريخ .

الاركان تعرفنا على مقدرة اى شاعر وتمكنه من فنه فيجملها فى الموهبة اولا ثم فى ما يحفظه ويرويه من اشعار سابقيه ومعاصريه مع ما يتمتع به من ذكاء وتمييز ذهنى وذوق متفتح ثانيا ، ثم فى الممارسة والمَرَانَة ثالثا حتى يستقيم له ارسال الشعر سليما خاليا من العيوب ، وهى الاسس التى تحملها نظريته فى (الطبع والرواية والذكاء والدربة .)

ولقد تصدى الجرجانى للدفاع عن المتنبى بوحى من احكامه التى توصل اليها وبمنطق القاضى المنصف المتجرد من الاهواء ، وبموهبة الناقد المجتهد وتمرس الاديب الواعى الفطن ، فكان منهجه فى (وساطته) انه ذكر ما للمتنبى وما عليه ، وقابل ذلك كله بما امتاز به عن غيره ، غير مبرىء له من العيوب ، ولكنه انصفه وانتصف لموهبته العملاقة دون تحيز لجانبه او تحامل عليه ، رغم الود المفقود بين المتنبى وغالبية معاصريه ، ولذلك كله ايضا ، بقيت الوساطة فى مأمن من الاخطاء المتعمدة او المغالطات ، واذا كانت هناك اخطاء عند الجرجانى فى مجمل احكامه التى اطلقها فانها ، وبحسبها هذا ، لم تكن عن قصد مبيت او بسبب من أى دافع شخصى[1] .

---

(1) ويؤيد هذا الرأى ، من جانب آخر ، أنَّ (القاضى الجرجانى ، فى « وساطته » =

ويهمنا فى هذا الصدد ، أن نذكر للمتنبى إحدى خصوصيّاته الأخرى التى سهلت ـ دون شك ـ مهمة شراحه العسيرة والتى قد لا تكون توفرت لغيره من الشعراء او عرفت عنهم ، اذ كان المتنبى يحضر بعض مجالس المعجبين به. التى كانوا يعقدونها لقراءة شعره ودراسته وحفظه ومراجعة رواياته ومقابلتها وتدوينها(1) وكان يتولى شرح ما غمض عليهم من معانيه وتراكيبه اللغوية ،وعلى الرغم من ان المتنبى فى قرارة نفسه ـ على الاقل ـ لم يكن راضيا عن جزء غير قليل من اشعاره فى صباه ومطلع شبابه ـ شأنه فى ذلك شأن الشعراء المتمكنين ـ وكان

= يضع للتذوق الجمالى اعتباراً يتقدّم كل شيء ، وحسبنا أن نقرأ قوله : (والشعر لا يُحَبَّب الى النفوس بالنظر والمحاجة ، ولا يُحلَّى فى الصدر بالجدال والمقايسة ، وانما يعطفها عليه القبول والطلاوة ، ويقرّبه منها الرونق والحلاوة ، وقد يكون الشيء متقناً محكما ولا يكون حلواً مقبولا ، ويكون جيداً وثيقا وإن لم يكن لطيفا رشيقاً) أو قوله : (أنا أقول ، أيدك الله ، إن الشعر علم من العلوم عند العرب ، يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ثم تكون الدربه مادة له وقوة لكل واحد من اسبابه ؛ فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرّز، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان . . .) .

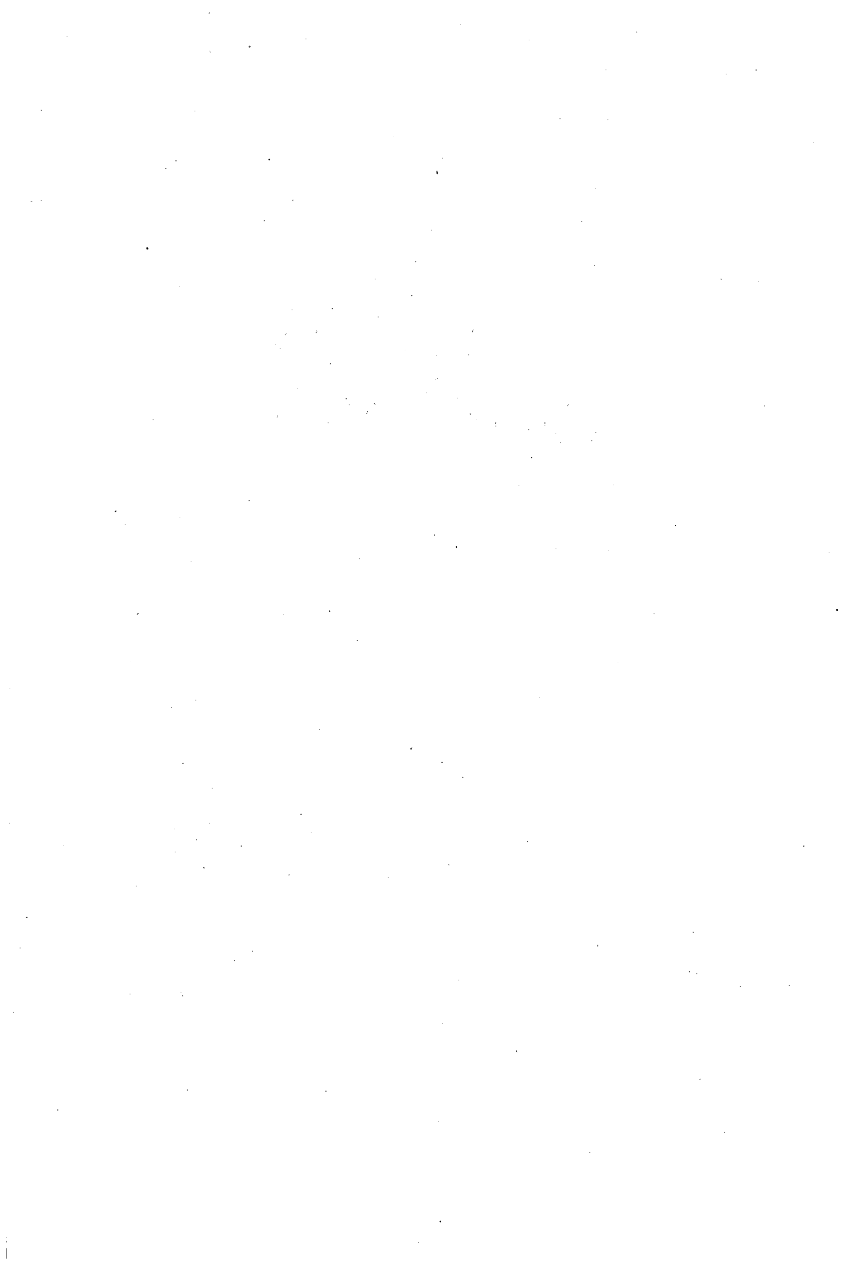
لندرك بعد ذلك ، سرَّ الإعجاب المطرّد الذى تحظى به احكام (القاضى الجرجانى) فى مختلف العصور .

(1) أنظر أيضاً (النقد المنهجى عند العرب) ص209-210 .

حريصا على عدم احتسابها فى ديوانه ، فانه لم يكن يتحرج فى القاء ابيات ومقطعات من اشعار تلك الحقبة على مسامع هولاء المعجبين ، ومن هنا جاءنا ديوانه كاملا غير منقوص الا مما حذفه منه برغبته ، ومن هنا ايضا انفتح المجال واسعا امام الانتقال فى شرح شعره من مرحلة الشرح اللفظى المجرد الى مراحل النقد التحليلى والخروج بمعان ومدلولات وصور ربما لم يكن المتنبى قد قصد اليها ، ولكنها اضفت على ديوانه تلك الهالة الضخمة من التقدير والشهرة والخلاف والاتفاق والتأييد والمعارضة .



مَلَامِح أندلُسِـيَّة
زمَان الحُلم .. وَالوَاقِع !



أثَرٌ بَعْدَ عَيْنٍ ! ؟

كانت العرب تقول فى امثالها وكلامها السائر المأثور :

« تَطْلُبُ أثراً بعد عين » * أى بعد معاينة ومشاهـدة ، لمن يترك شيئاً يراه ، ثم يتبع أثره بعد فوته وضياعه من بين يديه .

وكذلك هى الأمم مثل الأفراد :

فاذا نظرنا الى احوالهـا ، ومـا اعتراهـا من قوة وضـعف ، وازدهار واضمحلال ، وجدنا فى اخبارها عبرة وذكرى ، ولكنَّ الأمـم العظيمـة ، هى تلك التـى لا تتـرك الاشياء حتـى لا تُضْطَرَّ ، بعد ذلك ، الى طلب آثارها .)

---

* للالمام بحكاية هذا المثل وتفاصيلها ، يُرْجع الى الجزء الأول من (مجمع الأمثال) لأبى الفضل أحمد النيسابورى « الميدانى » بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . (652 ـ حرف التاء ، ص127 وما بعدها) .

(.. وأمّا بلنسية فانها لكثرة بساتينها تعرف بمطيب الأندلس ، ورصافتها من أحسن متفرجات الأرض ..)

(.. وأمّا مرسية فانها حاضرة شرق الأندلس ..)

(.. وأمّا جيّان فانها لبلاد الأندلس قلعة ، اذ هى أكثرها زرعا ، وأصرمها ابطالا ، وأعظمها منعة ..)

(.. ويحكى أن العمارة فى مبانى قرطبة والزاهرة والزهراء اتصلت الى أن كان يُمْشَى فيها بضوء السُّرُج المتصلة عشرة أميال ..)

الشَّقَنْدى

(اسماعيل بن محمد) المتوفى فى عام1232 م

الجُلَّنار .. يهجر غرناطة !*

(1)

فى الثالث عشر من اكتوبر من عام1492 م - كما تقول المصادر التاريخية - القى القرصان المأجور (كريستوفر كولمبوس) مراسى سفنه مع بحارته على شواطىء (العالم الجديد) فى البقعة التى عرفت فيما بعد باسم (امريكا) .

ومات (كريستوفر كولمبوس) ولم يكن يدرى انه فتح الطريق امام اكتشاف قارة بكاملها ، بعد رحلة شاقة كابد فيها اهوالا مرعبة وتعرض خلالها لثورات بحارته المغامرين معه كمرتزقة مثله ، فقتل من استطاع ان يقتله منهم بمساعدة اعوانه المقربين اليه ، وتكفّلت الطبيعة والامراض الناتجة عن سوء

* الجُلَّنار هو زهر الرمَّان ، وغرناطة (GRANADA) تعنى عند استعمالها الاطلاقى اللغوى (رمّانة) فى اللغة الإسبانية .

التغذية وتغير المناخ وغيرها بقتل الباقى ، بحيث لم تكتب النجاة الا لعدد ضئيل منهم قدّر لهم ان يشهدوا هبوطه المتلهف الى اليابسة .

(2)

وكان (كريستوفر كولمبوس) بحارا محترفا ، بل قرصانا ايطاليا مغامرا عرض على (ايسابيلاّ) ملكة (قشتالة) الاسبانية ، القيام لحسابها وباسمها وباسم اسبانيا بتلك الرحلة ، فرحبت بالعرض ، وتعهدت بالانفاق عليها كاملة ، وهيأت لها من الاموال والرجال ما جعل سفنها جاهزة للاقلاع بقيادة (كولمبوس) ، وفى غمرة نشوة الانتصار ببلوغ (العالم الجديد) ونجاح الرحلة وما احاطها من دعاية مبالغ فيها الى درجة الخيال فى بعض الاحيان ، نسب الاكتشاف الى اسبانيا ، وضاعت جنسية (كريستوفر كولمبوس) الايطالية ، حتى شاع عند اغلب الناس وظنوا انه اسبانى ، ولا يزالون فى ظنهم ذلك حتى الآن .

(3)

* فمن (ايسابيلاّ) تلك الملكة القشتالية الاسبانية ؟؟

* وماذا يعنينا من أمرها ، وامر رحلة (كريستوفر كولمبوس) ؟؟

انها فى حقيقة احداث التاريخ ابعد واخطر من كونها مجـرد ملكة اغراها قرصان بمغامـرة عابـرة غـير مضمونـة النتائـج ، فاستجابت له .

فهى ملكة (قشتالـة الواقعـة فى الشمال الاسبانـى ، وقـد تحالفت مع ابن عمها (فردينانـد الخـامس) ملك اراجـون) المجاورة لها ، وكان من نتيجة ذلك الحلف زواجهما وتـوحيد مملكتيهما ليستعدا معاً لمحاربة العرب المسلمين فيما تبقى لهم من امارات اسرية طائفية ممزقة ومتفرقة ومتطاحنة فيما بينها حتى تم لهما ـ فى نهاية المطاف ـ ما ارادا وما خططا له تحقيقا لاحـلام كانت تراودهما منذ زمن طويل .

(4)

لقـد دام حكم العـرب المسلمـين لاسبـانيا حوالى ثمانية قرون ، اسسوا فيها دولة عظيمة ، وبنوا على امتدادها حضارة باهرة ، وحين دب فيهم الوهن وانهكهم الضـعف ، ونشبـت بينهم الخلافات ، تفتّت دولتهم ، وانهارت وحدتهم ، وتفرقوا الى دويلات صغيرة ، وامارات لا وزن لها ، لم تصمد امـام ضربات اعدائهم الفرنجة الاسبـانيين الـذين كانـت تحركهـم الاحقاد الصليبية المتعصبة الدفينة سوى (مملكة غرناطة) التى

كانت تشكل ـ فى الجنوب ـ آخر معاقل العرب المسلمين فى اسبانيا .

كان حاكم (غرناطة) هو السلطان الفتى (ابو عبد الله محمد بن ابى الحسن على الغالب بالله) الملقب (بأبى عبد الله الصغير) ، وكانتُ الملكة (ايسابيلا) وابن عمها وزوجها (فرديناند) يستغلان ما آل اليه العرب المسلمون من تشتت وسوء حال ، فيشددان من ضرباتهما على (غرناطة) وما تبقى تابعا لها من مدن وامارات ، حتى تهاوت امام جيوشهما ، مدينة بعد مدينة ، وامارة بعد أخرى ، وبقيت (غرناطة) تقاوم تلك الغارات المتلاحقة بشجاعة ابنائها الذين صمموا على التصدى لجيوش مملكة (قشتالة واراجون) الموحدتين ، ولكن تصديهم لم يدم طويلا ، اذ سرعان ما تهاوت ـ كذلك ـ حصون (غرناطة) امام شدة الحصار ووقّع (ابو عبد الله الصغير) للمهاجمين الاقوياء وثائق المهادنة والهزيمة ، ومن بعدهما الاستسلام شبه النهائى فى عام 1491 م .

(5)

وفى عام (1492 م) نفس العام الذى وصل فيه (كريستوفر كولمبوس) شواطىء (العالم الجديد) فى رحلته الممولة من قبل

الملكة (ايسابيلا) كانت (غرناطة) تشهد سقوطها النهائى واستسلامها الأبدى لجيوش (ايسابيلا) وابن عمها وزوجها (فرديناند)[1] .

ولم يوقّع (ابو عبد الله الصغير) وثائق التسليم والاستسلام ـ هذه المرة ـ فقد كان وقعها من قبل ، ولكنه غادر (غرناطة) مطرودا مطاردا مع من بقى من أهله واعوانه وعبروا البحر الى المغرب مهزومين مخلفين (غرناطة) وراءهم حزينة مهيضة الجناح ، تاركين السيوف تعمل فى رقاب الذين ظفرت بهم جيوش الزحف الصليبى من بقايا العرب المسلمين الذين عزت عليهم (غرناطة) فاستبسلوا دفاعا عنها حتى سقطت منهم وسقطوا معها .

(6)

تلك كانت مأساة (غرناطة) الدامية ، مأساة الأندلس

---

(1) يعتبر الإسبان توحيد مملكتى (قشتالة واراجون) فى الشمال ، وسقوط (غرناطة) فى الجنوب أمام جيوش (ايسابلا وفرديناند) بداية لنشوء اسبانيا «واستردادها» موحدة بكاملها . وحتى يوحدوا بين لهجاتهم ولغاتهم المحلية المختلفة المستعملة آنذاك ، اتخذوا من اللغة (القشتالية او الكستيلية CASTELLANO) او الاسبانية الفصحى غير العامية او الدارجة لغة واحدة لاسبانيا كلها ، ومنها تنحدر اللغة الاسبانية السائدة الان .

العربى الاسلامى بكامله ، بل مأساة اسبانيا المسلمة بأسرها ، وقد بكى الأندلسَ ، الشعراء ، ورثوه رِثاءً صادقا مؤثرا تذوب له القلوب كمدا وحسرة .

وكان من اوائل اولئك الشعراء ، الذين تناولوا الاندلس فى اشعارهم ، (ابن سهل) شاعر (اشبيلية) المبدع ، فأرسل اليه قصيدة هى أشبه بالموشحة فى نظمها السلس الرقيق قال فى مطلعها :

هل درى ظبـى الحمـى أن قد حمى
قلـب صب حلّـه عن مكنس
فهـو فى نار وضيق مثـل ما
لعبـت ريح الصبـا بالقبس

وقد عارضها ونسج على منوالها ، الوزير الأندلسى الشاعـر (ابو عبد الله ابن الخطيب) قصيدة اشتهرت عليهـا بمطلعهـا الذائع :

جادك الغيث اذا الغيث همى
يا زمـان الوصـل بالأندلس
لم يكن وصـلك الا حلما
فى الـكرى او خلسـة المختلس

وفيها يقول ايضا :

يا أهيل الحــى من وادى الغضا
وبقلبــى مســكن انتــم به
ضاق عن وجدى بكم رحــب الفضا
لا أبــالى شرقــه من غربه
فاعيدوا عهــد أنس قد مضى
تنقــذوا عائــذكم من كربه
واتقــوا الله واحيوا مغرما
يتــلاشى نفســا عن نفس
حُبسَ القلــب عليكم كرما
افترضــون خراب الحُبَسِ [1]

(7)

ومن القصائد الاندلسية التى قيلت فى رثاء الأندلس ، نونية (أبى البقاء الرُندى) تلك القصيدة الخالدة التــى لعــل ابــرز ابياتها ، مطلعها والبيتان المواليان له :

(1) الحبس (بضم الحاء تسكين الباء) الوقف ، وقد استعمل الشاعر الباء محركة فى هذا البيت تجاوزا للاستعمال اللغوى الاصلى محافظة على الــوزن ، وهــو امــر جائــز وشائع ـ كما هو معروف ـ فى الشعر .

لكل شيء اذا ما تمّ نقصان
فــلا يغــرّ بطيب العيش انسان
هى الأمــور كما شاهدتهــا دول
مــن سرّه زمــن ساءتــه أزمان
وهــذه الــدار لا تبقــى على احد
ولا يدوم على حال لهــا شان

والقصيدة فى مجملها تتكون من اثنين واربعين بيتا يستعرض فيها (ابو البقاء الرُندى) المصير المحزن الذى تردى اليه العرب المسلمون فى الأندلس ، وما شهدتـه قراهــم ومدنهــم من ذل وهوان يختتمها بهذا البيت .

لمثــل هذا يذوب القلــب من كمد
ان كان فى القلــب اســلام وايمان

(8)

وبعــد ان يذكر (ابــو البقــاء الرُنــدى) احــداث التــاريخ وتهاوى الدول البائدة فى العالم ، منذ عهــود النبــى سليمان ، وسيف بن ذى يزن فى اليمن ، وملوك ارم والفرس وغيرهم ، ويعجب لتبدّل الاحوال ويقول :

كأنما الصعب لم يسهل له سبب
يوما ، ولا ملك الدنيا (سليمان)

يخلص الى التنويه بأن ما أصاب ديار الاسلام فى الاندلس هو فوق التصور ، وفوق الحسبان والنسيان فيقول :

فجائع الدهر أنواع منوّعة
وللزمان مسرّات واحزان
وللحوادث سلوان يسهّلها
وما لما حلّ بالاسلام سلوان

ويذكر حواضر الاندلس ومدنه الزاهية بابنائها وحضارتها ودور علمها وجامعاتها ، تلك الحواضر والمدن التى لم تبق منها اليوم سوى الأسماء :

فأسأل (بلنسيةً) ما شأن (مرسيةٍ)
وأين (شاطبةٌ) أم أين (جيّانُ)
وأين (قرطبةٌ) دار العلوم فكم
من عالم قد سما فيها له شان

ويصور الشاعر الحزين ، المنتسب الى مدينة (رُندة)(1)

(1) (رُنْدةRONDA) بضم الراء وتسكين النون ، ونطقها بما يخالف هذا خطأ ، وابو =

احدى المدن التى كانت اركانا للاسلام حصينة ، قواعد الاسلام التى انهدت ، وازيلت معالمها ، واختلطت مياه انهارها بدماء شهدائها المدافعين عنها فيقول :

تبكى الحنيفية البيضاء من أسف
كما بكى لفراق الالف هيمان
على ديار من الاسلام خالية
قد اقفرت ولها بالكفر عمران

لقد عاثت الصليبية الرعناء فسادا فى الأرض ، واعملت الخراب فى كل شىء ، واعتدت على المساجد فانتهكت حرماتها وحوّلتها الى كنائس ، تصك اصوات نواقيسها الآذان من بعد ان كان يرتفع فيها الآذان معلنا (الله اكبر) [1] :

حيث المساجد قد صارت كنائس ما
فيهنّ الا نواقيس وصلبان

= البقاء الرندى هو (صالح بن شريف) ولد فى عام 1202 م وتوفى فى عام 1285 م وبين المدن التى عاصر سقوطها وسقوط غرناطة ـ كما نعرف ـ زمن طويل .

(1) ولا يفوتنا ـ هنا ـ ان نبرىء المسيحية الحقة البعيدة عن التعصب والحقد ، من كل هذه الاعمال المسيحية التى تدعو على لسان المسيح نفسه الى التسامح والحب (. . من لطمك على خدك الايسر فحول له الاخر ايضا . ومن اراد ان يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء ايضا)(39—40 انجيل متى ـ دار الكتاب المقدس ، =

حتى المحاريب تبكى وهى جامدة
حتى المنابر ترثى ، وهى عيدان

ان الفاجعة التى حلت بالاندلس ، لتطغى على كل الفواجع ألما يصيب قلوب المسلمين :

تلك المصيبة أنست ما تقدمها
وما لها مع طول الدهر نسيان

ويذكر (ابو البقاء الرُندى) ، ويتذكر امجاد العرب وماضيهم ، وفرسانهم وابطالهم ، وعيشهم الذى كان رغدا هانئاً :

يا راكبين عتاق الخيل ضامرة
كأنها فى مجال السبق عقبان

= مصر ، دون تاريخ) والى التعاطف بين جميع الناس ، وهى صفات نابعة من تعاليم عيسى ورسالته السماوية ، وحسبنا ان نذكر فيه قول الحق فى القرآن : (قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركا اين ما كنت واوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا. وبَراً بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا . والسلام علىَّ يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حيا . ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون)(30-31-32-33-34 ـ سورة مريم) .

وحاملين سيوف الهند مرهفة
كأنها في ظلام النقع نيران

ويخاطب هؤلاء العرب، واولئك الذين يعيشون فى اقطارهم يفصلهم البحر عن الاندلس السليب، فلا يدرون بحاله، ولا يهتز لهم وجدان حتى يهبوا لنجدته، وقد استغاث بهم رغم ادراكه أنهم لاهون فى غفلتهم ودعتهم، وأن الخلافات التى دمرت الاندلس المهدور الكرامة هى نفسها المستشرية بينهم، إن (ابا البقاء الرندى) يهزهم بشعره، وقد فات الأوان وما عاد يجدى ندم فيقول لهم مكمّلا :

وراتعين وراء البحر فى دعة
لهم بأوطانهم عزّ وسلطان
أعندكم نبأ من أهل اندلس
فقد سرى بحديث القوم ركبان
كما يستغيث بنا المستضعفون وهم
قتلى وأسرى فما يهتز انسان
ماذا التقاطع فى الاسلام بينكمُ
وانتمُ يا عباد الله اخوان

الا نفــوس ابيّات لهــا هممٌ
امــا على الخــير انصــار واعوان

يا من لذلّــة قوم بعــد عزتهم
أحــال حالهــم كفــر وطغيان

لقد كان اهل الاندلس اعزة اقوياء فى مواطنهــم ، ولـكن الحقد الاعمى المتعصب حولهم الى عبيد مستضعفين مشردين فى اقطار الارض :

ولــو رأيت بكاهــم عنــد بَيْعِهُمُ
لهــالك الامــر واستهوتــك احزان

* وماذا بعد كل الذى وصفه (ابو البقاء الرُندى) ؟؟

لا يزال فى الفاجعة المروعة جانب بشع آخـر ، لانـه يمس الكرامة . ويجرح الكبرياء ، وينهش الشرف بمخالــب ناشبـة مفترسة :

يا رب أم وطفــل حيل بينهما
كما تفــرق ارواح وابدان

وطفلة مثل حسن الشــمس اذ طلعت
كأنمــا هى ياقــوت ومرجان

يقودهـــا العلـــج للمـــكروه مكرهة

والعـــين باكية والقلـــب حيران

(9)

* وتنتهى بكائية (ابى البقاء الرُنْدى) المحزنة الماثلة شاهدا واثرا ودليلا !

* وتبقى مأساة الاندلس محفورة فى ذاكرة التاريخ ، تتناقلها مخيلات الناس !

* ويبقى سقوط الاندلس ، مدينة تلو مدينة ، ومنطقة بعد اخرى ، ثم سقوط (غرناطة) آخر معاقل العـرب المسلمـين وحواضرهم فى اسبانيا الاسـلامية وفى اوروبـا كلهـا خسـارة فادحة لا تعوض ابدا !!

1 ـ حتى لا تختلط التسميات
هذه الموشحات .. من أين جاءت ؟!

مما لا شك فيه ولا أختلاف عليه أن « الشعر كان ديوان العرب خاصة والمنظوم من كلامها ، والمقيّد لأيامها والشاهد على أحكامها . »(1) .

ذلك كان شأن الشعر عند العرب فى الجاهلية ثم جاء الأسلام فكان له شأن كبير آخر منه أنّ النبى استباح دم « كعب ابن زهير» لتعرّضه له بالهجاء ومعارضته للرسالة حتى جاءه مادحا طالبا عفوه بقصيدته المشهورة « بانت سعاد » التى مطلعها :

---

(1) العقد الفريد ـ أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى ـ شرح وتحقيق : أحمد أمين وأحمد الزين وابراهيم الأبيارى ـ طبع ونشر لجنة التأليف والترجمة مصر ـ 1949 م ـ الجزء الخامس ص269 .

« بانـــت سعـــاد فقلبـــى اليوم مَتبول
متيم إثرهـــا لم يُفْـــدَ مكبول »

فعفا عنه وخلع عليه بردته أعجابا بمديحه .

« وقال النبى عندما ذكر عنده أمرؤ القيس بن حُجْر هو قائد الشعراء وصاحب لوائهم »[1] .

« وقال إن من الشعر لحكمة »[2] .

« ومن الدليل على عظـم قدر الشعـر عنـد العـرب وجليل خطبه في قلوبهم أنه لّما بعث النبى بالقرآن ، وأعجب قريشا ما سمعوا منه قالوا : ما هو الا سحر وقالوا فى النبى شاعر نتربص به ريب المنون . »[3] .

وكان للنبى شاعره المقدم على غيره وهو « حسان بن ثابت » فى الدعوة للرسالة والدفاع عنها والتصدى لأعدائها ، وقد قال له الرسول نفسه ذات مرة « شـن الغطـاريف على بنـى عبـد مناف ، فوالله لشعرك أشد عليهم من وقـع السهـام فى غلس

---

(1) العقد الفريد جـ5 ص270
(2) المصدر السابق جـ5 ص274
(3) المصدر السابق جـ5 ص273

الظلام وتحفظ ببيتى فيهم . قال والذى بعثك بالحق نبيا لأسلّنك منهم سلَّ الشعرة من العجين . ثم أخرج لسانه فضرب به أرنبة أنفه . وقال والله يا رسول الله إنّى ليخيل لى أنى لو وضعته على حجر لفلقه أو على شعر لحلقه فقال النبى : أيد الله حسانا فى هجوه بروح القدس . »[1] .

والى جانب « حسان بن ثابت » كان للنبى شاعران آخران هما « كعب بن مالك » و « عبد الله بن رواحة » . وكان « أبو بكر شاعرا وكذلك عمر وعلى »[2] ولم يقتصر عمر على قول الشعر ، بل كان ناقدا ذواقة حتى انه قال ذات مرة لابن عباس : أنشدني لأشعر الناس الذى لا يعاظل بين القوافى ولا يتتبع حوشىّ الكلام . قال : من ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : زهير بن أبى سلمى » .

وجاء فى القرآن[3] :

(1) العقد الفريد جـ5 ص277-278
(2) المصدر السابق جـ5 ص283
(3) سورة الشعراء ـ الآيات : 224-225-226-227

« والشعــراء يتبعهــم الغــاوون . ألــم تر أنهــم فى كل واديهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلـون . الا الـذين آمنـوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون » .

تلك هى - إذن - مكانة الشعر التى كان عليها ولا يزال مع أختلاف الأحوال وتبدّل الظروف .

وإذ كتب للعرب أن ينتهى حكم بنى أمية فى المشرق وتنهار دولتهم لتقوم على انقاضها دولة بنى العباس ثم يقيّض للأمويين من يبعث لهم دولتهم من جديد ، قاطعا الصحارى والبحـار رغم الأهوال والمخاطر الكثيرة ، فيكون « عبد الرحمن الأموى الداخل ، صقر قريش) ذلك الباعث للدولة والمرسى لدعائمهـا والباسط نفوذها على اجزاء واسعة من شبـه الجـزيرة الأيبـيرية وتحديداً فى أسبانيا أو الاندلس العربى المسلم فيما بعد .

وكشأن المؤسسين للدول من ذوى الإبداعـات والقـدرات الحضارية فقد نقل العرب معهم من أقاصى المشرق الى أعالى المغرب وأقـاصى الغـرب كل سمات ثقافتهـم وكانـت آدابهـم وفنونهم على رأس تلك السمات،وكان الشعر فى مقدمتها جميعاً .

واذا كان « الحسن بن هانىء ؛ ابـو نواس » قد اشتهـر فى بغداد بشعره الغنائى ، فانهم ايضا ينسبون اليه أسبـاب نشـأة الموشحات الأندلسية لما وجـدوه في بعض قصائـده ما يمهـد به لنهايتها بكلمات مثل « قـال وقلـت أو غنـى وغنيت أو أنشـد وأنشدت » وهو ما يشابه خرجات الموشحات الأنـدلسية التـى يسبقون قفلاتها بما يدل على الأنشاد والغناء ، وهو ما يظهر جليا فى العديد من مقطعاته وقصائده .

يقول « الحسن بن هانىء » :

فلـــم أزل بالرُّقَـــي أعَلِّلهُ
حتـــى انجلى عنـــه عارض الوسن
تم تغنّـــى عليه من طرب :
يا ريح ما تصنعـــين بالدمن

ويقول :

وبـــديع الحســـن قد فا
ق الرشـــا حسنـــا ولينا
تحســـب الـــورد بخدّيـــــــــ
ـــــه ينـــاغـــى الياسمينـــا

كلما ازددت اليه
نظـــرا زدت جنونا

... وتغنّينـــا بحذقٍ
يا ديار الظاعنينا

أو قوله فى نهاية إحدى قصائده :

غننـــى يا ابـــن أدين
ولهـــا بالماطِرُون (1)

وقوله :

أرســـل من أهـــوى رســـولا له
الىَّ والمنســـوب محبوب

فقلـــت أهـــلا بك من مرسل
ومـــن حبيب زانـــه طيب

ألى أن يقول :

قالـــت : تعشّقـــت رســـولى لقد
بـــدت لنـــا منـــك الأعاجيب

---

(1) الماطرون ، مكان فى دمشق ، وذكره هنا يتضمن إشـارة الى بيت شعـر ليزيد بن معاوية .

وقوله :

... طربا وغنّى معلنا
والطرف منه قد نكر :

يا من أضرَّ به السهر
عندى من الحب الخير

● وغير هذا ففى شعره كثير على منواله .

فاذا كان « أبو نواس » كذلك فى نظر بعض المحدثين المتتبعين لنشأة الموشحات ومحاولة تأصيلها لترجيح قولهم بأنها « صناعة مشرقية » نقلت من الشرق الى الغرب وترعرت فيه ثم رُدت الى الشرق مرة أخرى فى عصر أو عصور لاحقة فان الموشحات فى مجملها - ورغم كل شيء - تبقى أندلسية صرفة من اختراع الأندلسيين الذين بنوها أول ما بنوا على مقاطع من اغان دارجة بلسان عربى أو بلغة أهل البلاد من الأسبانيين فخرجوا بها فى كثير من الأحيان على المتعارف عليه من أوزان الشعر العربى وبحوره بمستدركاتها واشتقاقاتها كما نجد فى هذه الخرجة من موشحة لابن عيسى الأشبيلى :

ولـــكنما أشـــدو لعذّالى

سلطـــان الملاح يا قد رضى عنّا

ولولا الرضا ويش كن يكون منّا

أوفى هذه الخرجة من موشحة لأبى بكر بن عبـد الملك بن زُهْر :

فكم جدل مسموع

يقـــول ويسمع

ابـــو حفص هـ سلطانى

الله يحرزولى

هـ آمنـــى هـ أغنانى

هـ بلغـــين سولى

ثـــم تخلصـــوا من الخرجـات الدارجـة فجعلـوا الموشحـات بكاملها معربة بلغة فصيحة صحيحـة ومنظومـة على بحـور الشعر المعهودة كما نجد فى موشحة مشهورة لابن زهـر نفسـه يقول فى مطلعها وهى من بحر الرمل :

قد برانى فى هواك الكمد

يا لقومى عذلوا واجتهدوا

أنكروا شكواى مما أجد

قد نمـا حبـك عنـدى وزكا

لا يظـن الحـب أنـى مدعى

ونخلص الى القول مرة أخرى إنـه اذا كانـت الموشحـات ابتكاراً أندلسيا صرفا أو مولدا من تمازج بين الثقافـة العـربية الوافدة والثقافة الأسبـانية المنصهـرة فيهـا فان الأزجـال تبقـى وحدهـا ابتـكارا أنـدلسيا محليا خالصـا من أى تأثـير أو تقليد ونستطيع أن نرى ذلك بوضوح فى النصوص المدونـة منهـا فى كتاب (المُغْرِب فى حُلَى المغرب) الذى وضعه بالموارثة فى مائة وخمس عشرة سنـة ستـة من أهـل الأنـدلس هم (أبـو محمـد الحِجارى وعبد الملك بن سعيد وأحمد بن عبد الملك ومحمد بن عبـد الملك ومـوسى بن محمـد وعلى بن موسى المعـروف بابـن سعيد)[1] وفى غيره من الكتب التى عُنيت بهذا الفنّ أيضاً .

● ولعل أهمية « المُغرب » تتجلى فيما افرده مؤلفـوه الستـة فيه للموشحات والأزجـال « ونستـطيع أن نعـرف خطـره فى هذا الجانـب اذا لاحظنـا أن أهـم نص كتـب عن هذين الفنـين

---

(1) (المُغْرب فى حُلَى المغرب) لمؤلفيه المذكورين ـ تحقيق د . شوقى ضيف ـ طبع ونشر دار المعارف ـ مصر « دون تاريخ » .

« الموشحات والأزجال » حتى الان هو نص ابن خلدون الذى كتبه فى مقدمته وهذا النص نقله ابن خلدون عن كتاب « المقتطف من ازاهر الطرف » لعلى بن سعيد . وعلى بن سعيد فى حقيقة الأمر انما لخص فى هذا النص ما كتبه هو وأسلافه عن هذين الفنين فى « المغرب » (1) .

ونخلص الى القول ايضا إن الموشحات وقد تخلصت بعد تطورها وتطويرها من عجمتها ومن تضميناتها الدارجة غير المعربة فان الأزجال قد بقيت والى يومنا هذا على لهجتها الدارجة التى تقال أو تكتب بها لأنها فى الأصل قد قيلت أو كتبت بها بأكملها وان خالطتها كلمات معربة فصيحة لان أصلها فصيح معرب اصابه تحريف أو خالطه إعوجاج فى النطق حتى أن إمام الزجّالين الأندلسيين أبا بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن عيسى بن قزمان(480 هـ ـ555 هـ) يقول فى المقدمة التى وضعها لديوان أزجاله :.

« أن الأعراب فى الزجل لحن » (2) اى خطأ ويستشهد بقول أحدهم وهو أخطل بن نمارة :

(1) المُغرب جـ1 ص18 من المدخل الذى كتبه المحقق .

(2) المصدر السابق جـ1 ص167 .

« كسر الله رجل كل ثقيل »[1]

فهو يستنكر عليه أن يحتوى زجله على شطر بيت خاضع لقواعد اللغة الصحيحة والإعراب . وذكر الحجارى « أنه كان أى ابن قزمان فى أول شأنه مشتغلا بالنظم المَعرب ، فرأى نفسه تقصر عن افراد عصره كابن خفاجة وغيره ، فعمد الى طريقة لا يمازجه فيها أحد منهم ، فصار أمام أهل الزجل المنظوم بكلام عامة الأندلس . »[2] .

ومن زجل ابن قزمان قوله :

أصحى تعيب الناس كل احد عيب ماع

انما هو المطهر من سلم يد وقاع

وقوله :

والندى والخير والآس

والراح والظل والما

---

(1) المغرب جـ1 ص167 .

(2) المصدر السابق فى الجزء نفسه والصفحة 100 .

والمليح خلطـى مهاود
والـرقيب أصـم أعمى
وزمـير من فِم ساحر
وغنـا من كف سلمى

وقولـه :

ما أظـن الا ألـم بيك
أو مليح لا شك تعشق

ومن هنا فلا بد لنا أن نفرق بين الشعر والزجل . . . فالشعر لا مناص له الا أن يكون معربا بلغـة عربية فصيحـة ، واما الزجل فهو ذلك الفن الذى يقال باللهجة الدارجة غير معرب ولا يشترط أن يكون بلغة عربية فصيحة .

ومن هنا أيضا فأنه لا يمكن لنا أن نسمى الزجـل شعـرا أو الزجال شاعرا ، أو نقول عن الزجل إنّه (شعر ملحون) لأن الشعر يجـب أن يكون سليما لا يخالطـه لحن أى خطـأ فى الأعراب أو النطق .

2 - حتى لا تختلط التسميات
ليس شعراً .. ولكنه زجل !!

« الخاطــر ادّاعــى لك وثانــى ولىّ
برمتــى برم عنــك تركتــى خلىّ » (1)

« طــيرين في عش الوفا
باتــن سهــارى كنهن
من شوق بالماضى لفا
والاّ الهــوى شاغلهــن » (2)

« كيف نوصفـك للنـاس وانــت عالى
فـوق النجـوم اللى شغلهــا حالى » (3)

(1) مطلع من أغنية متداولة وينسب ايضا للشاعر أحمد رفيق المهدوى .
(2) و(3) مطلعان من كلمات « عبد السلام قادربوه » .

هذه بعض المطالع لأغان شائعة بيننا ، وعنها ، وعن مثيلاتها ، وعن غيرها ايضا نقول « الشعر الشعبى » .

ونحن حينما نقول ذلك ، فانما نقصد به ذلك « النوع » من الكلام الموزون المقفّى الذى تجرى به السنة الموهوبين فى الحواضر والبوادى والقرى ، ولعلنا لا نغالى ، اذا قلنا إن اغلب هؤلاء أميون لا يعرفون القراءة والكتابة ، ولم يخطر ببال أحدهم أن ما يقوله هو ويقوله غيره يضاهى فى فصاحته وبلاغته « بلغته الدارجة » أشعار أبى تمام والبحترى والمتنبى وحتى أشعار امرىء القيس وزهير بن أبى سلمى والنابغة الذبيانى أو يصل فى رقته الى مرتبة تنافس أشعار عمر بن أبى ربيعة وأولئك العشاق العذريين الذين اقترنت أسماؤهم بليلى ولبنى وعزة وغيرهن وغيرهم .

وعلى مضمون ما يقوله هؤلاء الموهوبون لا يوجد أعتراض أو نقد الا فيما يتصل بالأصول الفنية ، والقدرات التعبيرية والملكات الأبداعية لديهم ، وهى متفاوتة شأنهم فى ذلك شأن جميع الناس ، وانما يقع الأعتراض على التسمية فقط ، وهى من وضعنا لا من وضعهم ، فعلى الرغم من أن الشعر نابع من الشعور الذى ينفعل بحسب المواقف ، فإن كلمة « شعر » فى

حد ذاتها وبصفة تعميمية يجب ألا تطلق على هذا « النوع » من الكلام الذى يصاغ باللهجات العامية ولا يتقيد بقواعد اللغة الفصيحة ونحوها وصرفها رغم ارساله موزوناً مقفى وفى معظمه سلاسة موسيقية نادرة ، فالشعر هو ما انضبط بتلك الشروط وخضع لها ولعلمى « العروض والقوافى » ببحورهما المتعارف عليها منذ القدم ، أو المستدركة منها والمضافة اليها بعد « الخليل بن أحمد الفراهيدى » مثل « المتدارك والخبب وحتى مخلعّ البسيط والمتقارب » على الرغم من أنّ الأخيرين من البحور الأصلية .

ولعلنا ، لا نستطرد ، أو نخرج على موضوعنا حين نعرض لهذه البحور الثلاثة « المتقارب والخبب ومخلع البسيط » ونستعرض تفعيلاتها أو وحداتها الموسيقية لذيوع استعمالها سواءً فى الموشحات الأندلسية أو فى الشعر المعاصر ، وكما هو معروف فإن الموشحات هى التى مهدت لنشوء الزجل الأندلسى الذى أنطلق فيما بعد عبر الشمال الأفريقى مشكلا هجرة أدبية معاكسة الى المشرق على غير العادة .

أولا / « المتقارب »

ووحدته الموسيقية أو تفعيلته التى يرتكز عليها هى « فعولن » مكررة أربع مرات فى الشطر الواحد للبيت مثل :

اذا أنــا لاحظتــه راقصاً
خلعــت الفــؤاد على رقصه

ومن أشهر القصائد التى نسجـت على منوالـه قصيدة أبـى القاسم الشابى « أرادة الحياة » ومنها قوله فى مطلعها الواسـع الأنتشار بيننا :

اذا الشعــب يومــا اراد الحياة
فــلا بد ان يســتجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلى
ولا بد للقيد ان ينكسر

ثانيا / « الخبب » وهو من أصل « المتدارك » الذى وحدتـه الموسيقية « فـاعلن » ثم صارت تفعيلتـه التـى يرتـكز عليهـا « فعلن » مكررة أربع مرات فى الشطر الواحد للبيت ، وهـو يستعمل كثيرا فى شعرنا المعاصر ، وكانت وحدتـه الموسيقية أو تفعيلته ـ فى أصلها ـ « فاعلن » وهى عماد البحر المتدارك وقد ورد فى شعر الشابى أيضا ولكن منهوكاً أى بتكرار « فـاعلن » مرتين فقـط فى الشطـر الواحـد للبيت مثـل قولـه فى قصيدتـه المشهورة « صباح جديد » :

اسكنـــى يا جراح

واسكتـــى يا شجون

مات عهـــد النواح

وزمـــان الجنون

وأطـــل الصباح

مـــن وراء القرون

وان تغـيرت عنـده « فــاعلن » الثــانية فى كل شطــر الى « فاعلان » فصار عماد تفعيلات البيت « فاعلن فاعلان فاعلن فاعلان » .

ثالثاً : « مخلّع البسيط » :

ووحدته الموسيقية أو تفعيلته التى يرتكز عليها هى « مستفعلن فاعلن فعولن » لكل شطر وقد سُمّىَ « مخلّع البسيط » لأنه مخلع من بحـر « البسيط » الـذى تتـكون تفعيلاتـه من « مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن » لكل شطر مثل قول الشاعر الأندلسى « أبى بكر محمد بن عيسى » المشهور بابن اللبّانة

يا شادنــاً حلّ فى السواد

مــن لحــظ عينــى ومــن فؤادى

مســتفعلن فاعلن فعولن
مستفعلن فاعلــن فعـولــن

ومن « المخلع » قول شاعر المرية الأندلسى أبى الحسين محمد بن نصر :

وقهــوة شعشعــت فثارت
فأكثــر القــول مبصروها .

ومنه الموشحة المشهورة « لابـن هروْدس » الأنـدلسى التـى يقول فيها :

يا ليلــة الوصــل والسعود
بــالله عودى
كم بت فى ليلــة التمنى
لا أعــرف الهجــر والتجنى
ألثم ثغر المنى واجنى

ونعود الى حيث بدأنا بعد استطرادنـا الأضطـرارى فنجـد انفسنا قد تعودنا أن نقـول « الشعـر الملحـون » على « نـوع » مشابه من الكلام الموزون المقفَّى الذى يصاغ باللهجات العامية أو الدارجة ، وهذه تسمية قد تكون صحيحة له لأن ما نقصده

لا يندرج تحت مفهوم شعر اللغة الفصيحة ، بل يخالطه لحن ينزل به دون مستواها وتداخله تراكيب تغرب عنها ، على الرغم من أن بعضا منه يخضع لتفعيلات بحور الشعر المعهودة مثل قول « مد غلّيس الأندلسى » بلهجة أهل الأندلس الدارجة ولغتهم العامية الشائعة فى وقته :

فلقد عندك حلاوى لى منوّع
وجمالا طوع الام يخذل

فهذا البيت من « الشعر الملحون » منسوج على بحر « الرمل » الذى ركيزته الموسيقية التفعيلة « فاعلاتن » ومثل :

حكاية الشوق ليّا ما تعيد
يا للى الحب عن قلبك بعيد[1]

فهذا المطلع منسوج على تفعيلات بحر « الوافر » وهى « مفاعلتن مفاعلتن فعولن » لكل شطر .

ومثل هذا الدور الذى كان يغنى فى فلسطين وسوريا :[2]

---

(1) من كلمات « عبد السلام زقلام » .

(2) رواه ـ د . محمد مندور عن الأديبة مىّ زيادة « الشعر المصرى بعد شوقى » ـ الحلقة الثالثة ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر 1970 م

حياتـــى بعـــد بعـــدك نوح
ووعـــدى ضيّعـــك منى
وإنـــت إنـــت الغـــذا للروح
وليهْ ترضى البعـــاد عنى

فهو من « الشعر الملحون » ولكنـه يخضـع لتفعيلات بحـر « الهزج » وهى « مفاعيلن مفاعلين » لكل شطر .

واللحن هو الخطأ فى اللغـــة أى الخروج بها على قواعدهـا المعهودة وهو ـ كذلك ـ التطريب فيهـا ، والخطـأ فى القواعـد والتطريب سمتان من سمات « الشعر الملحون » فى وقت واحد معا !!

ونقول « الزجل » ونطلق على الذى يقوله إسـم « زجّـال » ونقصد به كل هذه « الأنـواع » من الـكلام الموزون المقفّـى السائر بين الناس باللهجات الدارجة أو العامية وهى التسمية الأصح لهـا جميعـا ، ومـن تعريفـات « الزجـل » اللغـوية فى القواميس والمعاجم نجد « اللعـب والجلبـة والتطـريب ورفـع الصوت » وهى تعريفات لا تخرج على مفهوم « الزجل » الذى نعنيه بل تشكل جزءا من سماته البارزة خاصة حين ينشـد فى الحفلات .

ولا بد لنا ـ بعد الذى ذكرنا جميعه ـ أن نَخْلص الى اجلاء اللبس بين ما نسميه « الشعر الشعبى » و « الشعر الملحون » من جهة وبين « الزجل » من جهة أخرى ، ولتحقيق هذا لا بد لنا من العودة الى الأصل فى نشأة « الزجل » أو هذا « النوع » من الكلام الموزون المقفَّى الخارج على قواعد اللغة الفصيحة ونحوها وصرفها ، وهذا الفن الذى نشأ أندلسياً « مغربيا » ثم انتقل مشرقيا متحدرا من الأندلس فى اقاصى المغرب أو الغرب مارا بالشمال الأفريقى مجتازا الى المشرق ، لا بد لنا من تسجيل هذا كله مسترشدين بالتتبع التاريخى الذى لا يعوزنا توافره له على كل حال .

يقول « ابن خلدون » فى مقدمته / (1) .

« ولما شاع فن التوشيح فى أهل الأندلس واخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع اجزائه ، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ، ونظموا فى طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها اعرابا واستحسنوه فأسموه بالزجل » .

(1) المقدمة ـ المطبعة الأزهرية ـ مصر ـ 1930 م .

« واول من ابدع فى هذه الطريقة الزجلية أبو بكر بن قزمان ، وان كانت قيلت قبله بالأندلس ، لكن لم يظهر حلاها ولا انسبكت معانيها واشتهرت رشاقتها الا فى زمانه » .

ويقول « بروكلمان » فى « تاريخ الشعوب الأسلامية »[1] .

« ثم ان ابن قزمان الذى اتصل أيام شبابه - على ما يقال - بآخر ملوك بنى الأفطس فى بطليوس ادخل الى الأدب العربى فنا شعريا جديدا كان شائعا فى اسبانية من قبل هو الزجل الذى لم يعد يخضع لاوزان الشعر المتعارفة بل للمقاطع . »

وابن قزمان كبير زجالى الأندلس هو أبو بكر محمد بن عيسى بن قزمان[2] ويلقب بالأصغر تمييزا له عن عمه « أبى بكر محمد بن عيسى بن قزمان الأكبر » وهو يشترط فى الزجل بُعْدَه عن قواعد اللغة الفصيحة ويعتبر التقيد بها فيه لحنا وخطأ ويقول عنه (الحجارى) نقلا عن « المُغرب »[3] :

---

(1) الطبعة السادسة - دار العلم للملايين - بيروت 1974 م - ترجمه / نبيه أمين فارس ومنير البعليكى .

(2) راجع / « المُغْرب فى حُلى المَغرب » تحقيق / د . شوقى ضيف - دار المعارف بمصر « دون تاريخ » .

(3) الحجارى هو ابومحمد الحجارى اول الأندلسيين الذين صنفوا « المُغرب » .

« كان فى اول شأنه مشتغلا بالنظم المُعرب ، فرأى نفسه تقصر عن افراد عصره كابن خفاجة وغيره ، فعمد الى طريقة لا يبازجه فيها أحد منهم ، فصار امام أهل الزجل المنظوم بكلام عامة الأندلس . »

ولابن فزمان ديوان يضم ازجاله ، ومقدمة يشرح فيها طريقته فى الزجل والشروط التى يضعها له .

وازجاله تتناول اغراضا متعددة هى التى مهد بها لأهل الأندلس ليبدعوا فى الزجل حتى بلغوا فيه درجة من التفرد مكنتهم من نظمه على بحور الشعر المعروفة ولكن بلغتهم العامية المتداولة .

ومن زجله أنه خرج ذات يوم مع أصدقاء له الى متنزه فجلسوا تحت عريش وأمامهم تمثال أسد ينسكب الماء من فيه على صفائح مدرجة من الحجر فقال : [1]

وعـــريش قد قام على دُكان

بحـــال رواق

---

(1) انظر باب الموشحات والأزجال فى مقدمة ابن خلدون .

وأسد قد ابتلع ثعبان
في غلظ ساق
وفتح فمه بحال انسان
فيه الفواق
انطلق يجرى على الصفاح
ولقى الصباح

تلك هى اذن ـ مقومات الزجل التى أرسى دعائمها ابن قزمان وشاعت من بعده وانتشرت حتى الآن رغم سقوط « غرناطة » آخر معاقل العرب فى الأندلس قبل ثمانى سنوات من نهاية القرن الخامس عشر الميلادى المسيحى ، وهى مقومات لا بد لها أن تميزه ويختص بها ، برغم تذبذبنا بين التسميات وعدم ثباتنا على واحدة منها فألبسنا بعضها قوالب لا تتسع لها وتضيق عنها وخلطنا بين الشعر الفصيح فى تسميتنا للزجل « بالشعر الشعبى والشعر الملحون » برغم ما بين الشعر والزجل من اختلاف وبُعْد فى المقومات وأن اشتركا فى خاصية الوزن والقافية وفى بعض السمات الفنية الأخرى .

« المألوف » :
بين النّغم .. ووحْدة الشّكل وتكامُل المعْنى !

(ألف الشيء ، يألفه ، الفة وايلافا ، فهو قد تعود عليه أو اعتاده) ، ومنه قوله تعالى فى سورة « قريش » (لايلاف قريش ، ايلافهم رحلة الشتاء والصيف) فهم ـ اذن ـ قد اعتادوا رحلة الشتاء الى اليمن ، ورحلة الصيف الى الشام فى جاهليتهم وقبل نزول رسالة الاسلام ، وبعد انتصارهم على (أبرهة الأشرم) وجنوده اصحاب الفيل حين حاولوا هدم الكعبة ، كما ينص القول السماوى فى سورة « الفيل » ذاتها : (ألم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل . .)

ونقول ، ألّف بين الشيئين (فتألّفا وأتلفا) كما نقول (تألّفه)

على الاسلام مثلا ، ومنه الذين نسميهم (المؤلفة قلوبهم) وغيرها من تصريفات واشتقاقات وصيغ الفعل (ألف) المعروفة .

ونقول ايضا، «من غير المألوف»عن الشيء الذى لم نألفه او نتعود عليه ، غير أن ما يعنينا فى هذا المجال هو اسم المفعول (مألوف) وهو ـ قياسا ـ الشيء المتعود عليه او المعتاد ، او الذى جمع بينه وبين آخر ، ومنه ـ حسب اعتقادنا ـ جاءت كلمة (المألوف) التى ننطقها بألف مخففة دون همزة (مالوف) ونطلقها على ذلك النوع من الغناء المتداول عندنا والمميز فى نظمه والحانه التى يؤدى بها .

فهل نعتبر اسم المفعول (مألوف) فى عداد الاشتقاقات من فعل (ألف) بحسب مدلوله اللغوى الصرف ؟؟ ام ان الكلمة ، صارت مصطلحا او تسمية متعارفا عليها بعد كثرة استعمالها بين الناس حين يطلبون الى شخص ان يغنى لهم بلحن لكلمات منظومة وشائعة لديهم بطريقتها فى الآداء واللحن والنظم فى مجالس طربهم وفى حفلاتهم بتعدد انواعها ومناسباتها ، فاصبحت كلمة (المالوف) اسما لها كفن قائم بذاته يشابه الموشحات والازجال والاغانى الشعبية الاخرى ،

او متضمنا لها ومحتويا عليها جميعا ؟؟

* لا ندرى على كل حال

ولكن اللافت للانتباه حقا ، اننا لا نستطيع ان نعتبر (المالوف) فرعا من فروع الموشحات الاندلسية او حتى تطويرا لها ، ولكنه وبطبيعة الظروف ، يدخل ضمن المؤثرات الفنية القادمة مع اهل الاندلس بعد سقوطه ونزوحهم منه عبر البحر الى شمال افريقيا فالمشرق .

ولا نريد ان ندلل على رأينا هذا ، ولكننا نرغب فى ان نقترب من صحته فى بعض جوانبه وذلك باستعراضنا مع اختصار شديد ، لتطور الموشحات بانماطها منذ نشوئها بركائزها وخرجاتها التى نظمت ـ اول امرها ـ على الحان لاغان متداولة بلهجة اهل الاندلس المحلية العامية حينما ضمنوا بعضا من مقاطعها فيها وحتى تحررها من هذا التقليد لتصبح الموشحات معربة منظومة بكاملها بلغة عربية فصحى مما مهد بعد ذلك لنشوء الازجال الخالصة العامية التى لا تداخلها الفصحى ، وهذه بعض امثلتنا :

اولا : الموشحات التى لها خرجة بلهجة عامة اهل الاندلس :

ونجد عند (ابى بكر محمد بن عبد الملك بن زُهْر) كثيرا منها فى نظمه المتقن الذى جعل منه وشاحا مشهورا الى جانب كونه شاعرا وفيلسوفا وطبيبا عظيما[1] وله موشحة مطلعها :

لأتبعنَّ الهوى

الى أقاحيه

حتى يقول فريقٌ

رقّت حواشيه

ويقول فى ختامها :

يلوح ضعف القُوَى

على توانيه

مثل التماس الغريق

ما ليس ينجيه

---

(1) « المغرب من حُلى المغرب » تقديم وتحقيق د. شوقي ضيف - جـ1 ، طبعة لدار المعارف ، مصر ، (دون تاريخ) ، ويقول « الشقندى » عن جدّه وعن أبيه وعنه (... وهل لكم فى الطب مثل ابن طفيل صاحب رسالة (حى بن يقظان) المقدم فى علم الفلسفة ، ومثل بنى زهر: أبى العلاء ثم ابنه عبد الملك ثم ابنه ابى بكر ، ثلاثة على نسق ؟؟) ويقول ابن سعيد عن أبيه عبد الملك : (وأما الطب فالمشهور بأيدي الناس «الآن) » فى المغرب ، وقد سار ايضاً فى المشرق لنبله ، كتاب « التيسير » لعبد الملك بن أبى العلاء بن زهر ، وله كتاب « الأغذية » أيضاً مشهور =

وجــه كمثــل الهـــلالْ
يبــدو علــى غصــنِ
رضَّعْتُــهُ بـالجمـــــــــال
وتحفـــة الحُسْـــــــــنِ
فعنـــد ذلـــكَ قـــال
قــولــوا لـــه عنـــى

وهذه خرجتها ، وهى عامية دارجة وقد مهد لها بقوله (فعند ذلك قال) وهـى من خصـوصيات الموشحـات اذ يمهـدون لنهاياتها بقولهم (قال او قلـت ، وغنّـى او غنيت ، وشدا أو شدوت)[1] وما شابهها، لأن الخرجة هى اصل التركيز فى الغناء والتـكرار بلحنهـا الـذى ارتـكزت عليه الموشحـات كلمات والحانا ، يقول ابن زهر فيها :

= مغتبط فى المشرق والمغرب) انظر : « فضائل الأندلس وأهلها » لأبن حزم (على بن أحمد سعيد) وابن سعيد (على بن موسى) والشقندى (اسماعيل بن محمد) وهى مجموعة رسائل نشرها وقدم لها د. صلاح الدين المنجد ، الطبعة الأولى ، لبنان ، بيروت ، دار الكتاب الجديد1968 م .

(1) وقد سبق ذكر هذا فى الحديث عن الموشحات وأصل نشأتها ذلك لأن موضوع هذه الفنون الأندلسية الثلاث : الموشح والزجل والمالوف يكاد يكون مترابطاً .

لِسْ نِرْ تَضى لو سوى
وصفي وتشبيهي
يريد نكون لـ صديق
يُصْبر على تيهي

وله موشحة اخرى يقول فى مطلعها :

صادنى ولم يدر ما صادا
شادن سبى الليث فانقادا
واستخف بالبدر او كادا

يا له لقد ضم بالدر أزراره
وبالحقفِ زُنّارَه

حتى يقول فى آخر مقاطعها مع خرجتها العامية :

تارة اقبّلُ آثاره
واندبه تاره

ايها المدلُّ بأجفانه
كم وفيت والغدر من شانه
واصحُّ من طول هجرانه

وعَلَشْ حبيبِ قطعـت الــزيارة

وعينيـــك سَحّــــــــــــاره

ومن موشحات (أبى العباس احمد بن حنّون الاشبيلى) وهو من مشاهير اشبيلية مكانة فى اشعاره وموشحاتـه ومشاركتـه فى الشؤون السياسية زمن « المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن » الذى قام على اشبيلية وامورها ، قوله فى مطلع احداها :

أبـى ان يجـود بالسلام

فـكيف يجـود بالوصال

الى ان يقول فى ختامها مع خرجتها العامية :

تفوّق سهم كل حين

بما شئت من يد وعين

وتنشد فى القضيتين

خلقـت مليح علمـت رام

فلسْ يخْلَـه ساعـة عن قتال

وتعمْـل بذا العينـين متاع

مـا تَعمـلُ اربـاب النبال

ثانيا : الموشحات المعربة بكاملها والتى تخلصت من الخرجة

الدارجة او العامية ونظمت بلغة فصحى ، بل وعادت الى بحور الشعر المتعارف عليها فى اوزانها وتفعيلاتها :

ومن اوضح واشهر امثلتها ، موشحة (ابن زُهْر) نفسه ومطلعها :

أيها الساقى اليك المشتكى
كم دعوناك وان لم تسمع

ومنها قوله :

كلما فكر فى البين بكى
يا له يبكى لما لم يقع

ايها المعرض عما أصف
تعرف الذنب ولا تعترف
كبد حرى ودمع يكف

مثل حالى حقه ان يشتكى
كمد اليأس وذل الطمع

وحتى يقول فى خاتمتها التى لم تعد لها خرجة عامية :

عشيت عيناى من طول البكا
وبكى بعضى على بعضى معى

قد براني في هواك الكمد
يا لقومي عذلوا واجتهدوا
انكروا شكواي مما أجد

قد نما حبك عندي وزكا
لا يظن الحب أني مدعي

ثالثا : امثلة من (المالوف) وهي تُظهر لنا بجلاء كامل عدم خضوعها للمقاييس التي تخضع لها الموشحات او الأزجال عادة ، او حتى المعايير التي يندرج شعر الفصحى بكامله تحت شروطها (1)

دمعي جرى عن صحن خدي كالمطر
والروح من فرط الهوى في هاوية
لّما رأينا الغيد ما بين الشجر
عقلي مضى والروح مني فانية
ونقروا الطار وحركوا الوتر
غنوا صبا ساروا بسيره باهية

---

(1) نصوص المالوف المثبتة منقولة من : (المالوف والموشحات) مقتطفات جمعها (حسن عريبي) الطبعة الثانية 1973 م ـ دار مكتبة الفكر ـ طرابلس .

وهذا طالعه ، والطالع تسمية غنائية خاصة بالمالوف ذاته :

هبّ النسيم وتخبَّلَتْ رشقاتهم
وأنـا مع الأغصـان حـين مالـت أميلْ
رشقوا الشمع والكأس يدور ما بينهم
وأنـا شربـت الحـب والصبـر الجميل

وهو من (نوبة) مالوف طويلة ، لا مجال لاثباتها كاملة .

وهذا جزء من « نوبة » مالوف اخرى :

يا غزالا بـين غزلان اليمن
يا وفى العهـد يا صافى البدن
يا ضياء الشـمس يا بدر الدجى
يا نسيم الصبـح يا دفـع الحزَن
أصلـوا حبلى وان شئتمـو اصرموا
كل فعـل منـكم عنـدى حسن

ومن الطالع :

روحـه روحـى روحه
مـن رأى روحـين عاشـا فى بدن

زمـــن الـــربيع يا صاح
زمـــن الخلاعه
قم جدد الافراح
فى الـــدنيا ساعة
من لازهـــى فى الراح
مالـــه بضاعه
زمـــن الـــربيع أقبل
فى حلـــة خضره

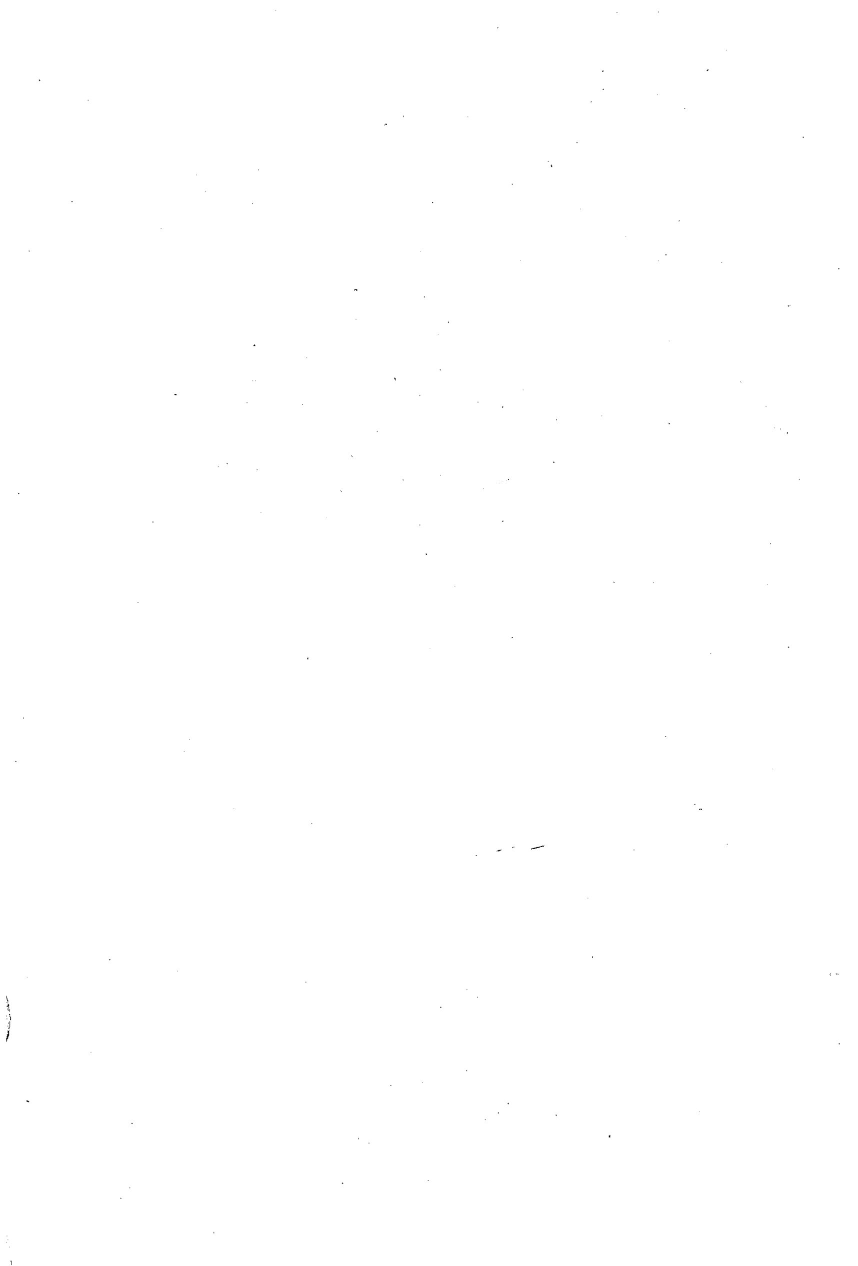
**ودون الالتفات الى القيمة الفنية ، او حتى التعبيرية او الفكرية التى قد تتضمنها او تخلو منها (نوبات المالوف) ، لأن ذلك ليس هدفنا ـ هنا ـ ، وبغض النظر عن الروح التى سادتها فى عصور ازدهارها وانتشارها وذيوعها ، وبحسب ما هو متداول بين الناس سماعا منها وترديدا على وجه الخصوص ، فاننا نستطيع ان نخمِّن ، كما سبق ان ذكرنا ، أنَّ تسميتها ، ربما جاءت بسبب التأليف او الجمع بين اجزائها ومقاطعها ومطالعها ، التى لا تربطها رابطة سوى كونها نوعا من الغناء الغزلى بحيث اذا اجتزأنا منها مطلعا او مقطعا اعطى

معنى متكاملا بنفسه ، فى الوقت الذى يكون المتبقى بعـده او قبله متكاملا فى معناه ايضا غير متأثر بذلك الاجتـزاء ، اذ لا توجد « وحدة عضوية » او بنائية او معنوية ، توحد بين تلك الاجزاء والمقاطع والمطالـع ، فهـى (عبـارة عن مجموعـة من الموشحات والأزجال وابيات الشعر ، وحدت بينها دائرة النغم فاصبحت وحدة متكاملة فى مضمونها الفنى) فقط [1] .

وقد يكون هذا التخمين صحيحا ، وقد يشكل رأيا ذا دلالة قاطعة ، اذا نظرنا اليه بالمنظور الشـكلى واللفظـى والمزجـى (للمالوف) الذى بقى مجهولاً فى مصادر نظمـه وتأليفه ، وفى اصحابه الذين شغلوا برواية مختاراته وتجميعها ، ووضعوا لهـا الالحان ، اما ابداعا وخلقا او اقتباسا ونقلا ، بفعل تفاعلات محلية او تأثيرات واردة من وراء البحر مهاجرة من الاندلس ، فانضمت بكل ما فيها الى مجمل السمات الثقافية والفنية المتوارثة بين الناس ومنهم جيلا بعد جيل .

(1) ما بين قوسين فى هذا التضمين ، رأى (حسن عريبى) فى المقدمة المختصرة التى وضعها لمقتطفاته من (المالوف والموشحات) المذكورة سابقـاً ، ومّما يحفز إلى ترجيحه قوله إنّ المألوف (عبارة عن مجموعـة من الموشحـات والأزجـال وابيات الشعر وحدت بينها دائرة النغم) فقط .

مِنْ مُؤَثِّرات الذين لغتهم في الكتاب !!



(. . . وسعت كتاب الله لفظاً وغايةً
وما ضِقْتُ عن آيٍ به وعِظاتِ
فكيف أضيقُ اليومَ عن وصفِ آلةٍ
وتنسيق أسماءٍ لمخترعاتِ
أنا البحرُ فى أحشائه الدُّرُّ كامِنٌ
فهلْ سألوا الغوّاصَ عن صدفاتى . . .)

« حافظ إبراهيم
فى عام 1903 م »



مَالقَـة الشَّرق ..
ومَالِقَـة الغَرْب !!

كان العرب سكان صحراء ، فى نفس الوقت الذى عرفـوا فيه البحر ، وعركوا مخاطره واستعملوا ادواتـه ، وكانـت لهـم منافذهم اليه ، ومسالكهم فيه ، من حضرموت الى البحـرين فالمحيط الهندى ، والخليج العربى ، والبحر الاحمر ، ولكنهم ، وفى اغلب تنقلاتهم ، كانوا يستسهلـون الطـرق البـرية ليتصلـوا بالبلـدان الاخـرى ، وكانـت « قـريش » على سبيل المثـال ، بحكم موقع « مكة » موطنها ، كمركز يتوسط طرق القوافـل ويستقبل الوافدين عليها ؛ تفضل ان تسـلك الطـرق البـرية التقليدية فى علاقاتها مع الشام او اليمن ايضا ، مما أغناها ، ولو إلى حين ، عن البحر ، وادى الى ألفتها لتلك الطرق الذاهبة عبرها والعائدة منها : (لايلاف قريش ، ايلافهم رحلة الشتاء

والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف)[1] .

وكان العرب ، يعلمون ابناءهم السباحة ، اذ اعتبروها مكملة لصفات الفروسية الاخرى ، مثل « الرماية وركوب الخيل » سواءً فى جاهليتهم او اسلامهم ، ولا يغيب عنا فى هذا الصدد القول المشهور ، الذى يحث على اعداد الفتيان متحلين بتلك الصفات (علموا اولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل)[2] .

وعلى امتداد تاريخهم الطويل ، ورغم كل ذلك ، لم يُعرف عنهم انهم لجأوا الى البحر ، يعبرونه فى رحلة جماعية ، دون

---

(1) سورة (قريش) ـ وانظر : (فجر الاسلام) احمد امين ـ الطبعة العاشرة 1969 م ـ دار الكتاب العربى ، بيروت ، لبنان .

(2) ينسب هذا القول الى عمر بن الخطاب ، ولعلنا نلحظ فى بيت « النابغة الذبيانى » فى قصيدته المدرجة ضمن ما يسمى بالمعلقات :

يظلُّ من خوفه الملاحُ معتصماً
بالخيزُرانةِ بعد الأيْنِ والنَّجَدِ

دليلا اخر على صحة القول ان العرب قد عركوا البحر واستعملوا ادواته ، ومعنى « الاين والنجد » فى البيت ، الاعياء والعرق ، ومطلع القصيدة هو :

يا دار ميّة بالعلياء فالسند
اقوت وطال عليها سالف الامد

هدف تجاري ، الا فى مطلع القرن السابع المسيحي ، وبالتحديد فى عام(615 م) بعد خمس سنوات من نزول الوحي على النبي ، حين امر مجموعة من المؤمنين به ان يفروا بدينهم ، ويهاجروا الى الحبشة ، لاجئين لدى نجاشيها ، مجنبين انفسهم بطش الوثنيين الجاهليين من قريش ، واذ ذاك ، عبروا البحر الاحمر ، وكان بين المهاجرين (وعدتهم اثنان وثمانون رجلا وبضع نساء بنت الرسول (رقية) وزوجها عثمان الذى اصبح الخليفة الثالث)[1] وكان عثمان بن عفان ، على وجه مؤكدٍ بين هولاء المهاجرين الضاربين فى اعماق البحر ، اذ تجمع المصادر على القول (انه من المهاجرين الاولين ، وكان تزوج رقية بنت رسول الله وهو بمكة فهاجر بها الى ارض الحبشة فقال رسول الله : انهما لاول من هاجر الى الله - عز وجل - بعد ابراهيم ولوط عليهما السلام)[2] .

(1) (تاريخ الشعوب الإسلامية) كارل بروكلمان ، ترجمة نبيه امين فارس ومنير البعلبكي ، وتعليق د. عمر فروخ ، الطبعة السادسة 1974 م ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان - وانظر ايضاً : (تاريخ ابن واضح المعروف باليعقوبي) (احمد بن أبي يعقوب) - المجلد الثاني - دار بيروت 1980 م بيروت ، لبنان والنجاشي هو لقب كل ملك من ملوك الحبشة وأما الذي لجأ إليه المهاجرة الأولون فاسمه (أصحمة بن أبْجَر) .

(2) (المعارف) لابن قتيبة « ابى محمد عبد الله بن مسلم » تحقيق وتقديم د . ثروت عكاشة ، الطبعة الثانية 1969 م ، دار المعارف ، مصر .

وثمّ روايات اخرى متشابهة ، تتناول الهجرة الى الحبشة ، فتحصرها فى احد عشر او اثنى عشر رجلا مع اربع نساء هن زوجات الذين كانوا متزوجين منهم ، ولكنها تذكر (ام كلثوم) بنت الرسول الكريم ضمن المهاجرين مع زوجها عثمان بن عفان ، بدلاً من اختها (رقية) وان كان عثمان قد تزوج الاختين (رقية وام كلثوم) ولكن تباعا ، بعد تسريحهما من زوجيهما فى الجاهلية (عتبة وعتيبة) « ابنى ابى لهب ، عبد العزّى بن عبد المطلب » عم والدهما .

ولا يلبث هولاء المهاجرون ان يعودوا الى مكة ، وعندما اشتد اذى كفار قريش للمسلمين ووصل الى حد التعذيب والقتل ، تمت الهجرة الثانية الموسعة التى حوت هذا العدد الكبير من المهاجرين الذين اربوا على الثمانين ، فاعتبرت هى الهجرة الاولى ، خاصة بعد اثارتها حفيظة قريش وغضبها وتحفيزها إلى ارسال (عمرو بن العاص وعبد الله بن ابى ربيعة) وقيل عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد المخزومى ومن رافقهما من رجالها وراءهم ، تلاحقهم لدى النجاشى طالبة رد ابنائها « الخارجين من اجماعها المتمردين على طاعتها » اليها ، مستغلة تقدير النجاشى لزعمائها ومكانتها بين القبائل

العربية ، ولكن الوفد القرشي يعود من رحلته خائبا فى الوقت الذى تعهد فيه النجاشي بحماية واستضافة اللائذين بحماه واللاجئين اليه .

وثمَّ روايات اخرى ، تدعم تلك الروايات ، وتضيف اليها معلومات مفيدة ومحددة تتعلق بعدد المراكب المستعملة فى رحلة الهجرة ، والثمن الذى دفع مقابل ركوبها ، ومكان الرسو أيضاً ، ومن ثم الاجتياز براً الى الاراضى الحبشية فتقول تلك الروايات ملخصة الرحلة :

(. . . . وبعد اشتداد اذى قريش للمسلمين الاوائل ، اشار الرسول على مجموعة من صحابته بالهجرة الى الحبشة ، فخرج من مكة احد عشر رجلا وقيل اثنا عشر منهم اربعة متزوجون ، اصطحبوا معهم نساءهم ، وكان عثمان بن عفان وزوجته ام كلثوم على راسهم حيث آواهم نجاشّي الحبشة واكرم وفادتهم ، وقد استعملوا فى رحلتهم مركبين اقلاهم مقابل نصف دينار ، ورسيا بهم فى بلدة (معدر) على الشاطىء الاريتري ، ومن هناك واصلوا مسيرهم الى الحبشة) .

ولعل الخيال الشعرى الذى جمح - ذات يوم - بالشاعر الجاهلى (عمرو بن كلثوم) فارسل قصيدته التى اشتهرت

كاحدى ابرز القصائد فيما يسمى بالمعلقات مفاخرا بقبيلته وقومه بنى تغلب بن وائل فقال :

ملأنــا البرَّ حتــى ضاق عنا
ومــاء البحــر نملــؤه سفينا (1)

هو الذى صار حقيقة واقعة بعد ان وحد الاسلام العرب ، فجابوا البر والبحر معا ، ولم يكتفوا بالفتوحات على اليابسة ، فضربـوا فى المحيطـات والبحـار بعيدا ، فاتحـين بجيوشهـم واساطيلهم الضخمة ، تارة ، ودعـاة للاسـلام فى مجموعـات صغيرة وكبيرة تارات اخرى ، يرتادون الافاق ، ويستوطنون ، وينشرون العقيدة ، والحضارة ، والعمران .

ولعلنا فى هذا المجال قد نستطيع الحديث عن بعض الملامح

---

(1) وفى رواية اخرى :

ملأنــا البــرَّ حتــى ضاق عنا   وظهــر البحــر نملــؤه سفيناً

ويروى ايضاً (وسط البحر) كما يروى (ونحن البحر)

والبيت الذى قبله هو :

إذا بلــغ الفطــامَ لنــا صبىٌّ   تخــرُّ له الجبابــرُ ساجدينا

وأما الذى بعده فهو :

الا لا يجْهَلنْ احــد علينا   فنجهــل فوق جهــل الجاهلينا =

التى تركها العرب المسلمون وراءهم - ولا تزال باقية - فى عدة مناطق من جنوب شرقي آسيا ويستطيع من يزور تلك المناطق أن يشاهدها مشاهدة عيانية أو يتلمسها فى العديد من المراجع التاريخية والجغرافية التى تتناول بالحديث شعوبها واجناسها ولغاتها واديانها وعاداتها وتقاليدها .

ان ابرز مثال للملامح العربية المتأصلة التى تركها العرب وراءهم فى مناطق جنوب شرقى آسيا يواجهنا بصورة واضحة فى شعوبها تلك التى تعتنق الأسلام دينا عاما لغالبيتها ونعنى بها شعوب الجزائر الأندونيسية والأئتلاف الماليزى ومنطقة فطانى[1] التى تعرف بمنطقة مسلمى « جنوب تايلند » .

وتقع تلك الدول الثلاث أرخبيل جزائر اندونيسيا وائتلاف

= وأما مطلع القصيدة فهو :

الا هُبِّـي بصَحْنِـكِ فاصبحينا ولا تبقي خمور الاندرينا .

(انظر : « شرح القصائد العشر » لابى زكريا يحى بن على المشيبانى ، المعروف بالخطيب التبريزى ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الثانية 1964 م ، مكتبة صبيح ، مصر .

(1) رغم ان « فطانى » كانت دولة مستقلة قبل ان تستعمرها (سيام) تايلند حاليا ، فانها لا تُعرف الآن ، الا بمنطقة مسلمى جنوب تايلند في اكبر مغالطة تاريخية يروج لها المستعمرون التايلنديون لتنتشر بين الناس .

ماليزيا المكون من (شبه جزيرة الملايو وجزيرتي صباح وسراواك) وفطاني بين خط الأستواء ومدار الجدى ، وهى دول شعوبها تتكلم لغة واحدة هى اللغة الملايوية التى للعربية جذور ضاربة فيها تتمثل فى كتابتها بالحرف العربى وفى احتوائها الكثير من الكلمات العربية مثل « زمان وعدل وحق » وغيرها من التعابير المتعلقة بالشريعة الأسلامية ولا تزال مستعملة فى أصلها العربى وإنْ صاحبها تحريف طفيف فى النطق فى بعض الأحيان .

وهذه الشعوب ، ينتمى اجدادها الى مجموعات السكان التى وصلت إلى جنوب شرقى آسيا منذ خمسة وعشرين قرنا قبل ميلاد المسيح واستقرت بها واستوطنتها تماما ؛ ومنذ القرن السابع المسيحى تزاوجت تلك المجموعات السكانية واختلطت بالعرب والهنود والجاويين والصينيين وبعناصر اخرى من ابناء شعوب كانوا يفدون على تلك المناطق ثم ما يلبثون يقيمون فيها فانتجوا بتزاوجهم واختلاطهم الجنسَ الملايوى الذى يشكل العرب ابرز عناصره المازجة . . ويؤكد هذا القول وجود الكثيرين من الحضارمة العرب الذين نزحوا اليها من حضرموت حيث لا يزالون ـ رغم وصول اجدادهم الأول اليها منذ عدة

قرون ـ يحتفظون بهويّتهم ـ المميزة وبلغتهم العربية التى لا يلابسها اى تحريف الى جانب تحدثهم باللغة المحلية الملايوية .

واذا كان العرب قد توزعوا فى مشارق الأرض ومغاربها بل وحتى جنوبها وشمالها وانشأوا المدن والدول . . وتوغلوا فى قلب اوروبا حتى شارفوا أعتاب فرنسا واستقروا فى شبه الجزيرة الأيبرية[1] واسسوا دولتهم الكبرى فى اسبانيا على مدى عدّة قرون من الزمان فانهم وعندما دالت دولتهم تلك تركوا وراءهم آثارهم وسماتهم التى لا يزال اقلها تحمله اسماء العديد من المدن والمناطق الأسبانية ـ وان اصابها بعض التحريف فى النطق ـ مثل (**اشبيليه وغرناطة وقرطبة وطليطلة**) ثم (**مالقة**) القريبة من جبل طارق[2] .

ولمالقة(MALAGA) الأسبانية هذه سمية اخرى هى ولاية من الولايات الغربية الماليزية تسمى (مالقة) وان استبدلوا بحرف القاف فى الكلمة كافاً مضعفا فأصبحت تكتب وتنطق (MALACCA) .

---

(1) IBERIA

(2) وتكتب هذه المدن باللغة الاسبانية :

(Sevilla- Granada- Cōrdoba- Toledo- Malaga)

وظهـرت « مالقـة » الماليزية الآن كدولـة لهـا كيان الـدول المتعارف عليه فى بداية القرن الخامس عشر المسيحى(1400 م) وما أن حل عام(1439 م) حتى اعلنت استقلالها الكامل عن أية قوى خارجية حتى صارت من أكبر الـدول الأسـلامية فى جنوب شرقى آسيا وقـد دخلهـا الأسـلام من جزيرة سومطـرة الأندونسية لقربها منها .

وغـير (مالقـة) نجـد فى الأئتـلاف الماليزى ثلاث ولايات اخـرى تحمـل أسماء عربية خالصـة هى ولايات (بـيرق) (وقدح) (وصباح) التى تنطق وتكتب على هذا النحو الذى خالطـه بعض التغيير البسيط (بـيرقPERAK) (قـدح KEDAH) (صباحSABAH) .

وحين نتراجع تاريخياً نجد أن (فطانى) قد سبقت (مالقة) فى تكوين دولتها ذات السيادة المطلقة على أراضيها حيث أعلن ذلك حاكمها السلطان (أحمد شاه الأصغر) مع أتخاذه الإسلام دينا رسميا لها فى عام(1350 م) .

وكانـت (فطانـى) ملتقـى للوافـدين العـرب والصينيين والهنـود وغيرهـم ، ولكن العرب كانوا يشكلون غالبية اولئك

واكثرهم حظوة وقبولاً ، فهم الذين يحملون الإسلام ؛ ذلك الـدين الـذى اعتنقـه الفطـانيون وتبعهـم اليه جيرانهـم من الأندونيسيين والملايويين .

واستطاعت (فطانى) الدولة المستقلة أن توسع من مناطق نفوذها ففى عام(1390 م) مثلا تمكن أحد ابنـاء سلطانهـا أن يصبـح حاكما على (نامـاسيك) سنغافـورة(Singapore) الآن .

وكانت (فطانى) قد سبقت شعوب مناطق جنوب شرقـي آسيا الى الأسلام فاستقبلته فى وقت مبكر جدا ـ بالمقارنة ـ حين اسلمت جماعات من سكانها ما لبثت أن تكاثرت منـذ القـرن التاسع المسيحى .

واذا عدنا الى مـا قبـل هـذا التاريـخ ، وجدنا أن المسلمين قد اسسـوا أول محطـة للتمـوين والراحـة وتـوزيع البضائـع وتجميعها فى (كانتون) فى الصين منذ القرن السابع المسيحى ولعلهم فى آثناء سفرهم إليها قد مرّوا فى طريقهم بميناء فطانى مما يرجح ان الأسلام قد دخلها اعتبارا من ذلك الوقت وقبـل القرن التاسع المسيحى بزمن طويل .

وكانت (فطانى) تسمى (باتانى)(PATANI) وهي كلمة مركبة من جزأين : الأول « بـا »(PA) ويعنـى الأب أو ولي الأمر أو الراعي أو الرئيس ، والثانى « تانى »(TANI) ويعنى المزارع أو الفلاح ، فاذا ما جمعنا الجزأين ، أصبح الاسم يكون كلمة واحدة لتسمية تعنى (أبا الفلاح أو الفلاحين أو أبا المزارع أو المزارعين) ذلك لأن المنطقة كانت تقع تحت سيطرة أو نفوذ رجل واحد ، يخُضع لنفسه جميع سكانها الذين كانوا يحترفون الفلاحة ويعتاشون منها فى عهـود سيادة الإقطـاع فى تلك المناطق .

ثم تطورت الاوضاع ، وتغـير الزمـن ، وفقـد الاقطاعـى الاكبر ، الذى كان يدعى أبوّته للفلاح بدافع استغلاله ، كل سيطرته ونفوذه ، واصبحت (باتانى) قرى كثـيرة لهـا مميزات المجتمع القروى ويتمتع سكانها بالملكية الفردية والكسب من الزراعـة وتـربية الماشية ، وعندمـا تكاثـر بهـا العـرب المسلمون ـ نسبيا ـ واستقروا فيها ، وجدوا تقاربا بين الاسـم (باتانى) وبين الفطنة التي اتسـم بهـا ابناؤهـا ، فلـم يجـدوا غضاضـة في تعـريب الاسـم وتحويلـه الى (فطانـى) اذ لـم يستوجب ذلك منهـم سوى ابـدال حرفى (البـاء والتـاء) في

الكلمة الاصلية ، واحلال حرفى (الفاء والطاء) محلهما ، مع حذف (الألف) الأولى فقط .

وفي عام(1354 م) كان (ابـن بطوطة) الرحالـة العربـى الاشهر[1] في طريقه الى الصين ، وقد مرّ بفطانـى ولاحـظ أن المسلمين فيها يشكلون غالبيتها العظمى ، ثم تعددت المناطق التى زارها (ابـن بطوطـة) خلال اجتيازه الصـين ، فمـكث حوالى سنة ونصف السنة فى جزائر (ذيبة المهـل)[2] تولى فى اثنائها القضاء قبل ان يتمكن ـ فيما بعد ـ من وصول الميناءين الصينيين (تستوتونج وكانتون) .

ولقد عرفت جزائر (ذيبة المهل) باسم (جزائـر المالـديف (Maldive Isles) بعدأن وصل اليها المستعمرون الأوروبيون[3]

---

(1) هو (شمس الدين ، ابو عبد الله محمد بن ابراهيم) ولد فى « طنجة » عام 1304 م وتوفى فى عام 1377 م ، ورحلاته واخبارها كما هو معروف تحمـل اسـم (تحفـة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفـار) وهـى برواية « محمـد بن جزى الكلبى » .

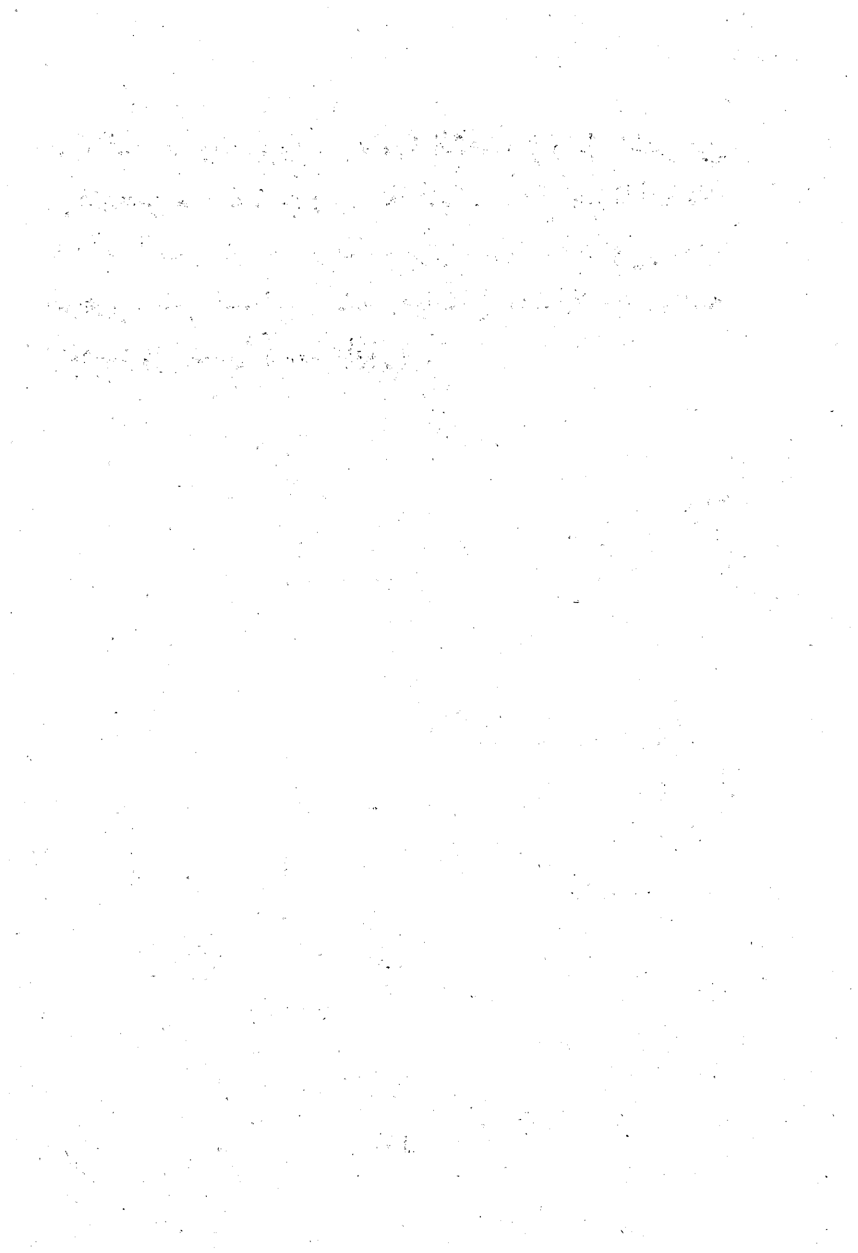
(2) هذا اسمها كما ذكره ابن بطوطة فى رحلاته ، ويقول عنها : (وصلنا جزائر ذيبة المهل ، وذيبة على لفظ مؤنث الذيب ، وهذه الجزائر احدى عجائب الدنيا وهى نحو الفى جزيرة ، ويكون منها مائة فما دونها مجتمعات مستديرة كالحلقة) . وانظر في هذا ايضا : (تاريخ الشعوب الاسلامية) لبروكلمان .

(3) احتلها البرتغاليون اولا في عام 1558 م ولكنهم طردوا منها بعد سبع عشرة سنة ، =

فى قرون متأخـرة بعـد بدء عصر الاكتشافـات الاسـتعمارية الاوروبية ، فاذا ما أخذنا فى اعتبارنا أن المضـاف اليه يسبـق المضاف فى اللغة الانجليزية على صورة معاكسة للغة العـربية التى يكون فيها المضاف سابقا للمضاف اليه او على هيئة ما هو معروف بأن (الصفة تتبع الموصوف) ولا تسبقه ، وجدنـا أن الاسم (جزائـر المالـديف Maldive Isles) هو نقـل محـرف ومعكوس لشقى التسـمية العـربية (ذيبـة المهـل Maldive) وليْس (محل الذيب) كما جرت محاولة تعريبها ، ولعل التسمية (ذيبة المهل) راجعـة الى ان مجموعـة كبـيرة من تلك الجزائـر مجتمعـة فى مياه المحيط الهنـدى قد تراءت للرحالـة العـرب ، ومنهم (ابن بطوطة) بالطبع ، عند اقترابهم منها بمراكبهم ، مثل الذئبة التى تتحفز اليهم وهم يبحرون نحوها على مهل وفى تؤدة ورفق ، واما (المُهْل) - بضم الميم وتسكين الهاء - والذى من معانيه « القطران وذوب الحديد المحمّـى » الـوارد ذكره فى

= حين جوبهوا بمقاومة شعبية عارمة ، وفى عام 1753 م احتلها البريطانيون ولكنهم لم يستطيعوا البقاء فيها سوى اربعة اشهر ، حين اجبرهم الشعب على الجلاء منها ، ثم عادوا اليها مرة ثانية فى عام 1887 م ، وتمكنوا من فرض حمايتهم عليها ، منطلقين اليها من الهند ، واستقروا بهـا منـذ ذلك الوقـت حتـى توقيع معاهـدة استقلالها فى عام 1965 م .

الآية التاسعة والعشرين من سورة الكهف ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، إنَّا اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرَادِقُها ، وإنْ يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ، بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾ فاننا لا نعتقد أنّه المقصود فى التسمية (ذيبة المهل) .



الدّمغجَة .. وَالدّحرجَة ..
وَالدّهمجَة .. وَمابَيْنَها !!

مواكبة من لغتنا للتقدم العلمى فى عالمنا المعاصر ، واستيعابا لمخترعاته واكتشافاته وادواته الحضارية ، فاننا نستعمل الكثير من المفردات والكلمات والمصطلحات والتسميات التى اقتبسناها من اللغات الاخرى الشائعة مثل « الانجليزية والالمانية والفرنسية والايطالية والاسبانية » وهى لغات واسعة التداول والاستخدام ، ولها جذور إمّا « جرمانية أو لاتينية رومانية » قديمة ، وخاصة فى حالات اشتقاقاتها المتعلقة بالقوانين والفلسفة والطب والصيدلة وغيرها من العلوم والآداب والفنون المستحدثة .

إنَّ ذلك ـ ودون شك ـ لا يعد عيبا فى لغتنا او قصورا منها فى

احتواء مفردات وكلمات ومصطلحات وتسميات « مستجدة » ودخيلة علينا وضعت لمخترعات واكتشافات وادوات لم نقم - نحن العرب - باختراعها واكتشافها او استحداثها ثم نشرها - بالتالى - بين الناس ، وقد سبق لتلك اللغات التى اقتبسنا منها ونقلنا عنها ان اقتبست منا ونقلت عنا الكثير من المفردات والكلمات والمصطلحات والتسميات العربية ، بدءا بكلمتين بسيطتين عاديتين هما (السكّر والحنّاء)(1) وإنتهاءً بما يختص بالجبر والهندسة والرياضيات فى مجملها وعلم الفلك وحركات النجوم والاجرام السماوية وبروجها مما اخترعه أو اكتشفه العرب الاولون او سجلوا حوله ملاحظاتهم ودونوا عنه دراساتهم واضافاتهم واطلقوا عليه تسمياتهم التى دخلت تلك اللغات ولغات عديدة غيرها وصارت من صميم قواميسها ومعاجمها ولا تزال متداولة حتى اليوم ، ومستعملة

---

1) الحنّاء فى اللغة الانجليزية(HENNA وفى اللغة الاسبانيةALHEÑA) ونلاحظ أن (أل التعريف) (AL) هى من اصل الكلمة فى الاسبانية مما يدل على اصلها وتركيبها العربيين الصميمين ، والتعريف المعجمى للكلمة انجليزياً واسبانياً) (نبات تجفف اوراقه ويستخرج منها مسحوق يعجن بعد اذابته فى الماء ليستعمل فى تزيين الاصابع وصبغ الشعر) .

استعمالات « عربية » وان تكن داخلتها بعض التحريفات السطحية التى لا تمس جوهرها بما يتناسب مع نطق الاوروبيين والغربيين بصفة عامة ونطق بعض الشعوب الاخرى لمخارج بعض الحروف التى تختلف عن نطقها العربى او لعدم وجودها اصلا عندهم [1] .

وانها لمن الميزات النادرة ، بل المميزة للعرب ، ان العربى يستطيع ان ينطق أى حرف فى جميع لغات العالم نطقا صحيحا واضحا وسليما ، فى الوقت الذى يعجز فيه ابناء العديد من الشعوب الاخرى عن نطق حروف مثل (الخاء والعين والغين) عجزا كاملا ، أو نطق حروف مثل (الضاد والذال او الطاء أو الظاء) نطقا سليما ، وحتى الذين درسوا منهم لغتنا دراسة وافية متوسعة ، وصاروا فى عداد من نسميهم (بالمستشرقين أو المستعربين) يقفون قاصرين عن القيام بهذه « العملية

---

(1) وعلى سبيل المثال ـ لا الحصر ـ نذكر بعض اسماء الاجرام السماوية المستعملة فى اللغة الانجليزية والمنقولة نقلا يكاد يكون حرفياً عن اللغة العربية . :

نجم الاظفار	(ALADFAR)	نجم النطاق	(ALNITAK)
نجم الجدى	(ALGEDI)	نجم النياط	(ALNIYAT)
نجم الغراب	(ALGORAB)	نجم الطرف	(ALTARF)

اللغوية » قصورا واضحا ، رغم اجهادهم أنفسهم وتحميلهم حناجرهم وحلوقهم والسنتهم ما لا تستطيع من جهد ومعاناة فى سبيل ذلك .

* هذه مقدمة لقول قد يكون مكرَّراً فى هذا المجال : غير ان استعمالنا المفردات والكلمات والمصطلحات والتسميات المقتبسة يضعنا امام كثير منها نستخدمه على هيئته التركيبية الاصلية - مع تغيير ادخلناه عليه لا يعد ذا شأن كبير - مما يظل فى حاجة الى تعريب كامل لم نتوصل اليه حتى الان ، رغم الجهود « المشتتة » المبذولة من قبل بعض الهيئات والمجامع العلمية واللغوية العربية ، محاولة التوفيق بين المحافظة على المعنى والاتيان ببناء لفظى لا يخلّ به ، فلا يبدو تعريبا خالصا ، ولا ينفك حتى من « جذره » الاجنبى .

وعلى سبيل التمثل ، ما الجدوى من تغيير مصطلح (الديماغوجية) الى الدمغجة ، وتقريبها الى التركيب العربى حيث تبدو في بنائها الجديد البراق وكأنها قد تعربت ، في حين ان ذلك لم يحدث اطلاقا ، ولا بد ان الذى خُيِّل اليه انه غيرها كان متأثرا بصيغ كلمات عربية كثيرة مشابهة مثل :

** (الدحرجة) وهى رمى الشيء « الكرة مثلا » رميا خفيفا على مستوى سطح الأرض ، او من مكان مائل ميلانا بسيطا .

** (الدعلجة) التى من معانيها التردد فى الذهاب والعودة .

** (الدملجة) التى من معانيها تسوية صناعة الشيء ، ومنها جاءت كلمة (الدُملج) « بضم الدال » . والدمالج مما تتحلى به النساء من أسورة ، لأن صناعتها مستوية دقيقة .

** (الدهمجة) التى من معانيها اختلاط فى المشى ، أو مقاربة الخطو مثل مشى الكبير .

** (الدهرجة) ومعناها المشى السريع .

** (الدغنجة) التى من معانيها ضخامة جسم المرأة وثقلها ، والاقبال والادبار كذلك[1] .

إنّ مثل هذا التغيير يظل غير كاف ، ولا يحق لنا ، تحت اية صفة كانت ، أن نسميه تعريباً بالمعنى العلمى الكامل مفهوماً ،

---

(1) لمعرفة المزيد من صيغ بعض التركيبات الاخرى ومعانيها ، يراجع (القاموس المحيط) ' للفيروزآ بادى ' وما يماثله من المعاجم والقواميس اللغوية .

وحتى ندرك حقيقة ما نقصد اليه نعود الى كلمـة (تعـريب) نفسها ، لنجد انها فى اصلها تنحدر من كلمة (العرب) التى تتفرع عنها عدة اشتقاقات توجد فى المعاجم والقواميس مثل :

* (العرب العاربة) وهم العرب الصرحاء الخُلَّص .

* (العرب المتعربة والمستعربة) وهم العرب الذين ليسوا عربا فى أصلهم .

واذن فالتعـريب ينـدرج تحـت هذا المفهـوم ، وكم من المفردات التى لم تكن عربية ثمّ وفدت على اللغة العربية من لغات اخرى ، فتعربـت وصـارت عربية معنـى ولفظـا رغـم عجمة ورومية اصلها ، بل ان التعريب يعنى ايضا فيما يعنيه ، تهذيب النطق والكتابة وتحريرهما من الخطـأ اللغـوى .

ومـن المفـردات والـكلمات والمصطلحـات والتسـميات المنقولة ، دون تغيير كبير ـ كلمة (تكنولوجيا Technology) التى تحولت الى (تنقية) فى استعمالنا الشائع ، دون أن نشعر أن استعمالها على هذا الشكل وبهـذه الصفـة العامـة ، يبقـى ناقص الدلالة والمعنى ما لم تخصص الكلمة لمضاف اليه يلحق بها .

وندخل فى تفصيل أوفى محاولـين (تحليل) كلمـة (تقنية)

المعربة أو تكنولوجيا(TECHNOLOGY) فى اللغة الانجليزية أو (TECNOLOGĪA) [1] فى اللغة الاسبانية وهى الاقرب الى نطقنا العربى فنجد انها تحمل عدة معان منها :

(العلم التطبيقى ، علم الخصوصيات ، علم الصناعات والفنون واصطلاحاتها وخصائصها ، طرق فنية لتحقيق اغراض عملية ، جميع الوسائل المستخدمة لتوفير كل ما هو ضرورى لمعيشة الانسان ورفاهيته ، الاصول المختصة بفن او مهنة او حرفة ، والاساليب المطبقة فى كل تلك الامور) .

فهل يمكن لكلمة (تقنية) ان تستوعب كل المعانى والمدلولات السالفة التى تحتويها الكلمة فى أصلها اللغوى الانجليزى او الاسبانى مثلا ؟ وكذلك فى استعمالها وتداولها ؟؟

* اننا نعتقد انها تقف عاجزة عجزا كبيرا عن آداء هذا الدور المتشعب

* ثم يطالعنا الاشتقاق(TECHNO) فى اللغة الانجليزية بالمعانى التالية :

(الفن أو الصنعة ، صاحب الفن او الصنعة أو الصناعة ،

---

(1) نضع فى اعتبارنا ان حرف(G) الاسبانى هنا مثل حرف الخاء فى اللغة العربية تماماً .

أو الفنى أو الصنائعى أو الصناعى) فهل يستطيع الاشتقاق العربى (تقنى) الذى اريد به ان يكون مرادفا له ان يعطى المعانى المطلوبة او المتيسرة فى الاشتقاق الاصلى ؟؟

** اننا نعتقد انه لا يستطيع ان يفعل ذلك على الوجه المُرْضى ايضا .

ثم نأتى الى كلمة (تكنيك TECHNIQUE) وهى من مشتقات (TECHNOLOGY) واخواتها فنجد انها تعنى فى جملة ما تعنيه (أسلوب أو طريقة معالجة التفاصيل الفنية من قبل الكاتب أو الاديب أو الفنان ، حسن السبك ، دقة السرد والعرض ، البراعة الفنية ، طرائق البحث العلمى ، ثم الطريقة المتبعة لانجاز غرض منشود) وعنداستعمالنا لها فضلنا ان تبقى على هيئتها الاولى : (تكنيك TECHNIQUE) وبخاصة فى الدراسات النقدية الادبية ولم نلجأ الى تغييرها لانها ـ وحدها ـ القادرة على الايفاء بالغرض المطلوب . ويعنى مصطلح (TECHNOCRACY) فى اللغة الانجليزية : (حكومة الفنيين أو المتخصصين ، وادارة المجتمع من قبل الاختصاصيين وذوى الخبرة) ولو اردنا نقله الى لغتنا

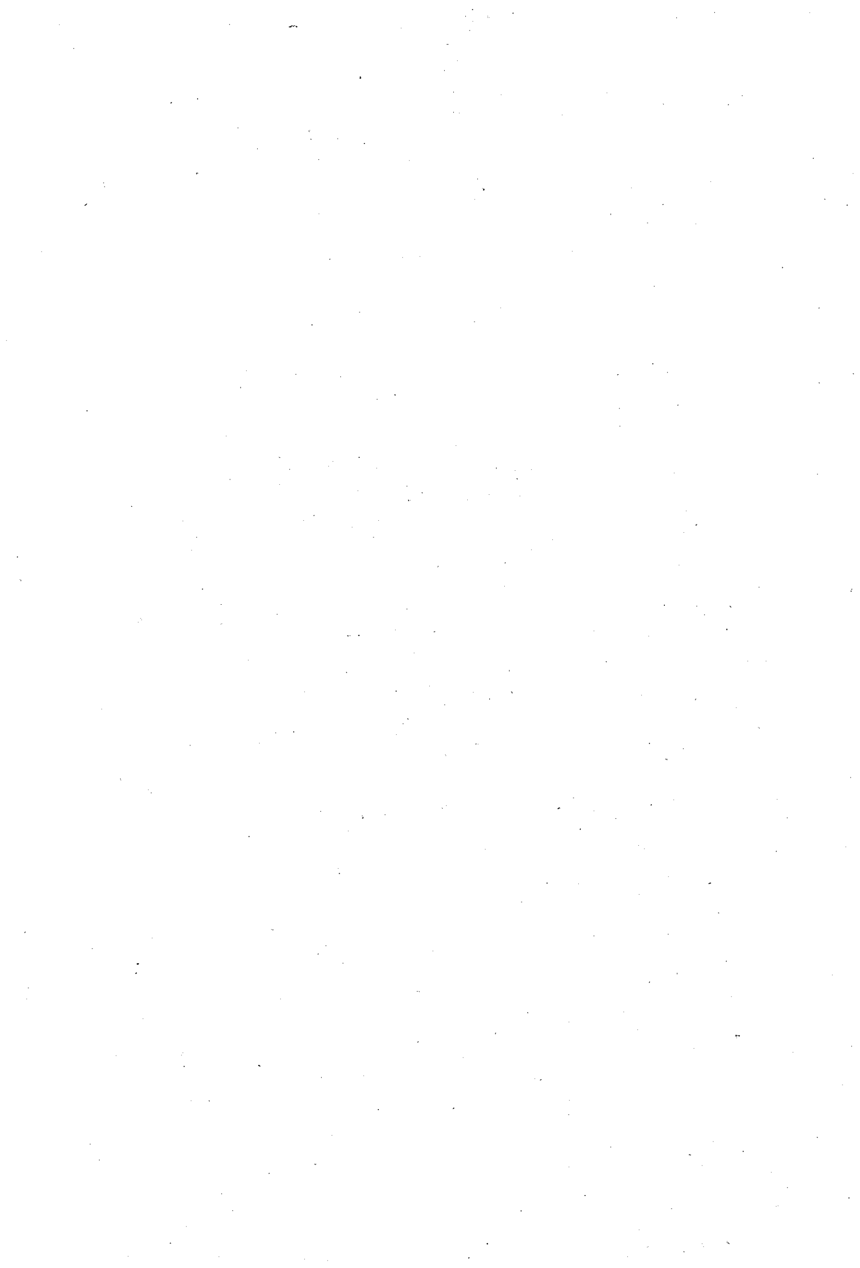
مستعيضين عنه بكلمة (التقنيين) فانه سيقف قاصرا عن آداء المعنى الدقيق الذى يعبر عنه فى أصله ومن اجل ذلك لا نجد أمامنا سوى خيار واحد هو استعمال مصطلح (تكنوقراط) عند رغبتنا فى ايجاد نفس المدلول المستخدم فى المعجم الانجليزى مثلا . ولعَلَّ التقارب الوهمى ن 'لنطق بين كلمة (التقنية) ومصطلح (TECHNOLOGY) هو الذى أوعز لنا بأنهما يؤديان المعنى نفسه، خاصة اذا وضعنا فى اعتبارنا وجود المصدر العربى (اتقان) القريب من (التقنية) والقريب فى معناه الى حد ما من (TECHNOLOGY) اذ تعودنا القول إن اتقاننا شيئا ما هو احكامنا له ، وتدقيقنا فى كشفه او فى صنعه أو صناعته .

**وعلى كل حال فإن التعريب قضية شائكة وحيوية بالنسبة الينا ، واننا نقدر ان نتغلب عليها بصعابها الجمة ، اذا عربنا المعانى واوجدنا لها كلمات عربية خالصة تحتويها وتقوم مقامها - عن جدارة وشمول - ولغتنا - بطبيعة الحال - من اغنى ، بل لا نبالغ او نتحيز لها إذا قلنا - اغنى لغات العالم بالفاظها ومفرداتها وكلماتها ، ومترادفاتها واشتقاقاتها ، وهى منوطة بالقيام بهذا الدور الهام - وفى الوقت ذاته - قادرة عليه غير

قاصرة عنـه ، ولكننـا لا نريد تعريبـا ظاهـريا تتحـول فيه (الديماغوجية) الى (دمغجة) « والديمقراطية » الى (دقرطة) «والثيوقراطية » الى (ثقرطة) « والدكتاتـورية » الى (دكتـرة) مثلا او حتى (التكنولوجيا) الى (تكنجة) مستسهلين فى ذلك الابدال اللفظى الذى لا يتطلب أى عناء يذكر ، ولا يحمل معه أى جديد ذى اعتبار [1] .

(1) ولا يفوتنا أن نضع فى اعتبارنا ، أنَّ التعريب كمصطلح اطلاقى ، يعنى من ضمن ما يعنيه ، نطق الكلمات وكتابتها بحروف عربية تطابق اصولها الوافدة منها ، اوبتغير فى بنائها يكون بالقلب او الزيادة او الانقاص ، او ابدال تتالى حروفها تقديماً او تأخيراً ، وأنَّ ما ننشده الى جانب **هذا** ، هو ترجمة معانى الكلمات الاجنبية **ومدلولاتها أو ترجمة معانى** ما تؤديه من أعمال وتحققه من اغراض واهداف لاتختلف عما اطلقت عليه فى اساسها .

ثلاثة شعراء
وبعض ما يتبعهم !!



حَاتِم الطَّائي ... شَاعِرًا وَصُعلوكًا !!

مقدمة :

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك . . . ولا تبسطها كل البسط . . . . » (الاسراء ، من الآية ـ29) .

فى الشك :

كان (عطية الخطفى) والد الشاعر الهجاء الأشهر « جرير » بخيلا الى حد لا يوصف ، وقد جاء رجل الى « جرير » ذات يوم يسأله عن أشعر الشعراء فأخذ بيده وجاء به الى ابيه « عطية » وقد ربط عنزاً له وجعل يمص ضرعها ، فصاح « جرير » به أخرج يا أبت ، فخرج شيخ ذميم رث الهيئة ، وقد سال لبن العنز على لحيته ، فقال (جرير)

للرجل : هذا أبى كان يمصّ ضرع العنز مخافة أن يسمع جيرانه صوت الحلب ، فيطلبون منه لبنا !!

وقال « جرير » للرجل : إن أشعر الناس من فاخر بمثل هذا الأب ثمانين شاعرا وقارعهم جميعا !! ؟

ولكن (جريرا) لم يفاخر بأبيه مطلقاً ، وقد تجنب فى هجائه للشعراء وغيرهم ممن عاصروه ان يصفهم بالبخل ، رغم أنه قدح فيهم وفى نسائهم وأعراضهم ، وما كان له الا أن يفعَل ذلك ، وأبوه على تلك الصورة الوضيعة من البخل .

فى الموضوع :

مع ما سبق . . فان « حاتما الطائى » ـ كما نعرف ـ قد فاق العرب جميعا فى الكرم المفرط ، وفى ذلك تُروى عنه حكايات متواترة الى هذا العصر ، ولكن الذى بقى شبه مجهول ـ عند الكثيرين ـ أنه شاعر أيضاً ، وما لنا فى هذا الصدد الا أن ننقل بعضا من حكاياته ونعرض جانبا من شعره .

وكان « حاتم » يكنى « بأبى سفانة » وهى ابنته الكبرى

و« بأبى عدى » وهو ابنه ، وقد أدرك « عدىّ » الاسلام فأسلم ، وأرسله « أبو بكر الصديق » ضمن من أرسل من القادة الى القبائل فى حروب « الردة » ، وسفانة فى اللغة تعنى اللؤلؤة وقد كانت مثل أبيها كريمة مسرفة فى العطاء ، فكان « حاتم » يمنحها القطيع من إبله فتمنحها الناس حتى قال لها ذات يوم :

« يا بنية إن القرينين إذا اجتمعا فى المال أتلفاه ، فإمّا أن أعطى وتمسكى ، أو أمسك وتعطى ، فانه لا يبقى على هذا شىء ، فقالت سفانة : والله لا أمسك أبداً . . قال : (حاتم) وأنا لا أمسك . . فقالت : لا نتجاور اذن » فقاسمها ما عنده ، وكان بينهما بعد ذلك فراق حيث مضى كل منهما الى طريق » .

وفى عام من الأعوام أصاب الناس قحط وجفاف لم يبقيا عليهم شيئاً من إبل أو أغنام ، وحلت ليلة كان فيها « حاتم » وامرأته « ماويّة » و« عدى وسفانة » جياعا ما استطاعوا أن يناموا من شدة الجوع ، فأخذ « حاتم وماويّة » يعللان الطفلين ويمنيانهما بالطعام حتى ناما ، ونظر « حاتم » ـ مصادفة ـ من تحت الخباء فى الخيمة فرأى إمرأة مقبلة

عليهم ، ثم تبادره بالقول : « يا أبا سفانة أتيتك من عند صبية جياع ، يتعاوون كالذئاب ، فقال لها أحضريني صبيانك فوالله لأشبعنّهم . . » فقامت « ماويّة » من مكانها وقد اصابها الاستغراب قائلة له : « بماذا يا حاتم ، فوالله ما نام صبيانك الا بالتعليل من الجوع ، فقال لها : والله لأشبعنّ صبيانك مع صبيانها » . فلما عادت المرأة ومعها أولادها قام (حاتم) الى جواده فذبحه وايقظ « عديًّا وسفانة » وأخذ يطرق جيرانه بيتا فبيتا يناديهم أن يجتمعوا على النار التى أوقدها ليأكلوا لحم الجواد ، فأتوا عليه جميعاً ، وأما هو فما أكل منه شيئاً رغم جوعه مثلهم ، أو ربما كان أشدَّ جوعا !!

ومما ليس شائعا عن « حاتم » أنه كان من صعاليك العرب ، كان يُغير على القبائل والقوافل ، فيصيب منها ما يسطيع ، ثم يمنحه غيره ممن يحتاجون اليه ، وكان فارسا شديد الفتك لا يهاب شيئا فى سبيل مطامحه ، وقد تعرض فى غير مرة للأسر والقتل ، وكان ينجو من ذلك ولا يصاب بسوء ، ومن غاراته المتواصلة ـ وكانت الصعلكة فى الجاهلية منتشرة ـ جاءته تلك الأموال التى أشهرته بالكرم وان كان له ولاسرته فى اليسر والمال نصيب غير قليل ايضا .

وعن الصعاليك يقول « حاتم » :

« وشرّ الصعـــاليك الـــذى همُّ نفسه
حـــديث الغوانـــى واتبـــاع المآرب »

ولكنّ « حاتما » فى الوقت نفسه كان رجلا ـ الى جانب كرمه وصعلكتـــه ـ يتمتـــع بأخـــلاق رفيعـــة ؛ وتلـك من شيم الكـرام ، ويرى الحفاظ على شرف جاره ـ رغم جاهليته ـ فوق كل اعتبار فيقول :

« اذا ما بتُّ أختـــل عرس جارى
ليخفينـــى الظـــلامُ ، فلا خفيت
أأفضـــحُ جارتـــى وأخـــون جارى
معـــاذ الله ، أفعـــل ما حييت»

وقبل أن يموت كان « حاتم » يوصى من حوله بقوله « انـى أعهدكم من نفسي بثلاث. ما خاتلت جارة لى قط لأرادوها عن نفسها . . . ولا اؤتمنت على أمانة الا قضيتها . . . ولا أتى أحد من قبلى بسوءةٍ أو قال بسوء » .

وفى شعره نلحظ تلك الروح الطيبة التى كانت تسود شعر « زهير بن أبى سُلمى » خاصة فى قصيدته الذائعـة الشهرة ،

حين يتحدث الشاعر عن الدهر وصروفه وفنـاء العمر ، والأجل الذى لا بدّ للانسان أن يقضيه أو هو يقضى عليه ، فزهير يقول فى ما يسمى بالمعلقة مثلاً :

« سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
ثمانين حولا لا أبا لك يسأم »

و (حاتم) مع الاختلاف مع « زهير » فى المعنى يقول بالأسلوب ذاته الذى تشعر من خلاله بأسى حزين :

«هل الدهر الا اليوم أو أمسِ أو غدٌ
كذاك الزمان بيننا يتردد
يرد علينا ليلة بعد يومها
فلا نحن ما نبقى ، ولا الدهر ينفد
لنا أجل امّا تناهى أمامه
فنحن على آثاره ، نتورد »

ويبدى « حاتم » رأيه فى الناس ، بل هو يبسط أمامنا مبادئه فى حياته ؛

«كذاك أمور الناس راض دنيةً
وسامٍ الى فرع العلا متورِدُ

فمنهـــم جواد قد تلفَّــت حوله
ومنهـــم لئيم دائـــم الطـــرف أقوَدُ
وداعٍ دعانـــى دعـــوة، فأجبته
وهـــل يدَعُ الداعـــين الا المبلَّدُ »

ولا يبقى بعد الانسان غير ما تركه من سيرة حسنة وانفاق على ذوى الاحتياج خاصة اذا كان ميسور الحـال ، هكذا يقـرر « حاتم » .

« اذا أنـت أُعـطيتَ الغِنـى ثم لم تَجُدْ
بفضـــل الغِنـــى ، أُلْفيتَ مالك حامدُ
ومـــاذا يُعـــدِّى المالُ عنـــك وجمْعُه
اذا كان ميراثـــاً وواراك لأحـــدُ »

ويبلغ « الطائى » قمة السخاء والبذل حين لا يستسيغ طعاما اذا لم يشاركه فى تنـاولـه ، ضيف أو جار أو غـير هذين من النـاس ، بل إنه يعتبر نفسه عبدا لضيفه ما دام عنده مقيما .

«اذا ما صنعـــت الـــزاد فالتمسى له
أكيلا فانـــى لســـت آكلَـــهُ وحدى
أخـــاً طارقـــا، أو جار بيت فاننى
اخـــاف مذمـاتِ الاحـاديث من بعدى

وإنـــي لعبـــد الضيف ما دام ثاويا

ومـا فيَّ الا تلك ، من شيمـــة العبد »

ثم ماذا يفعل « حاتم » بنفسه اذا لم يجد لمن يطرق داره ما يضيفـه به ، رغم ان قدوره على النار دائماً . وكلبه من ألفتـه كثرة الوافدين لا يستنبحه الغرباء لان صاحبه غير بخيـل ؛ إن كلاب البخلاء وحدهـا التـى تفعل ذلك :

قدورى بصحـــراء منصوبةٌ

ومـــا ينبـــح الكلـــب أضيافيه

وان لم أجـــد لنـــزيلى قِرىً

قطعـــت له بعض أطرافيه

وعلى جاهليته ـ كما أسلفنا ـ فإن حاتمـا لم يكن من عبـدة الأصنام والأوثان مثل الجاهليين ، أو نحن هكذا نرى من قوله :

« أمـــا والـــذى لا يعلـــم الغيبَ غيرُه

ويحيى العظـــامَ البيضَ ، وهـــى رميمُ

لقد كنت اطوى البطنَ والـزادُ يُشتهى

مخافـــة ، يومـــا أن يقـــال : لئيم »

فى الخاتمة :

ومع ما سبق ، فاننا نكرر القول : إن « صعلكة »[1] حاتم لم تكن من أجل السلب والنهب إشباعا لانحراف فى سلوكه أو من أجل الأيثار لذاته على غيـره ، بل كانت أخذا من مترفين أغنياء واعطاءً لمحتاجين فقراء ، ولا نكرر القول حين نذكر لحاتم ايضا أنه كان ذا أخلاق رفيعة لم يكن الجاهليون يتصفون بأكثرها على الاقل ، اذ نراه يردد كثيراً فى شعره الاشادة بمثـل

(1) « الصعلكة » صفة لحقت بمجموعة من الشعراء الجاهلين عرفوا (بالشعراء الصعاليك) ، كانوا يتنقلون بين المناطق ، ويمارسون الاغارة والنهب والسلب ، ويقولون الشعر أيضاً ، وما الصعلكة هذه إلا ظاهرة من الظواهر التى سادت المجتمع الجاهلى الوثنى الذي اصابه الأضمحلال والتفكك فى أغلب روابطه وعلاقاته الاجتماعية والإنسانية ، فالجاهليون (. . . قوم لا يسألون الضارب لم ضربت ، ولكنهم يسألون الباكى لم بكيت ، وهم لا ينظرون الى المغتصب هذه النظرة المهينة التى نرمق بها اللص وقاطع الطريق ، ولكنهم ينظرون اليه نظرة البطولة والإعجاب ما دام يسعى جهرة ، ولا يدب دبيباً ويتستر متزاوراً) (الهجاء والهجاءون فى الجاهلية ـ د . محمد محمد حسين ، ص81 ـ الطبعة الثالثة1970 م ـ دار النهضة العربية ، بيروت ـ لبنان) تلك هى اذن بعض القيم الخلقية الجاهلية ، التى لا تعترف الا بالقوة ولا تهاب الا القوى ولو كان ظالماً ، ولا تعير الضعيف اهتماماً ولو كان مظلوماً . واشير هنا إلى ان المصادر لا تصنف حاتماً الطائى فى عداد الشعراء الصعاليك أمثال (تأبط شراً ، وعروة بن الورد ، وابى النشناش) وقد اطلقت عليه هذه الصفة قياساً ببعض سلوكه الذى يتشابه معهم فى جوانب من صعلكتهم .

هذه القيم الجميلة فى التعامل مع الناس :

(لا نطرق الجارات من بعد هجعة
من الليل الا بالهدية تحمل
ولا يلطم ابن العم وسط بيوتنا
ولا نتصبى عرسه حين يغفل)

وما أبعد هذا عن اخلاق الجاهليين الذين كان بعضهم يتاجر فى اجساد إمائه باجبارهن على احتراف البغاء والرذيلة ، حيث كانوا يقيمون لهن اماكن خاصة يتردد عليهن فيها الطالبون للمتعة الرخيصة المبتذلة والمستهجنة من كل الاديان والمجتمعات ، وقد كن - حتى لدى الجاهليين انفسهم - منبوذات فى العلن ويشار اليهن بصاحبات «الرايات الحمر» نسبة الى رايات كن ينصبنها على مباغيهن تمييزا لهن ، وقد نزل فى القرآن ، وفى بدايات الدعوة الى الاسلام - ما يأمر بالكف عن اكراه الإماء على ارتكاب ذلك ما دمن يردن تعففا وتحصنا :

(. . . ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان اردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم)[1] .

---

(1) (سورة النور - الآية 33) .

"فوبيا" .. في حماسة البحتري !؟

البحترى (أبو عبادة الوليد بن عبيد) وأبو تمّام (حبيب بن أوس) شاعران تقصر الاضافة الى سيرتيهما عن الزيادة فى الشهرة التى نالها كل منهما على مرّ العصور وحتى الآن .

والبحترى معجب بأبي تمام اعجاب التلميذ بأستاذه ، لم يثنه ما تمتع به من نجاح كفيل بابدال تواضع اكبر المتواضعين غرورا أن يذكر ذلك ويفاخر به أمام الناس ، حتى انه حين صنف ابو تمام « حماسته » المعروفة بادر الى « معارضتها » والنسج على منوالها وتصنيف « حماسة » مشابهة لها ، اختار فيها من أشعار العرب ما جمعه ورتبه فى اربعة وسبعين ومائة باب ، ابتدأها بما (قيل فى حمل النفس على المكروه) وانهاها بمختارات مما قيل فى الرثاء لجماعة من النساء من مثيلات (الخنساء ، تماضر بنت عمرو الشريد)و(ليلى الأخيلية) وهما أشهر من

ذاع ذكرهما فى هذا المجال ، حيث أرسلت **الأوَّلة** رثاءها تفجعا على اخويها (صخر ومعاوية) ، بينما وقفت الثانية رثاءها على بكاء حبيبها (توبة بن الحُمِيّر)[1]

تقول الخنساء فى رثاء صخر :

وقـد سمعــت ولــم أبجــح به خبرا
محدّثـــا جاء يَنْمـــى رجـــع أخبار

يقــول صخــر مقيمٌ ثمَّ فى جدثٍ
لــدى الضريح ، صريع بــين أحجار

وتقول فى رثاء معاوية :

يا عــين مالك لا تبــكين تسكابا
إذْ راب دهــر وكان الدهــر ريابا

● وكلا صخر ومعاوية قتلته عداوات قبلية جاهلية .

وأمّا ليلى الاخيلية فتعزى نفسهـا فى موت (توبـة) بشعـر يشبه الحكمة فتقول :

---

(1) وقد قتل صخر ومعاوية فى الجاهلية ، وأمّا توبة فقيل إنه قتل بسبب ليلى التى ما أنفك يرسل شعره فيها حتى بعد زواجها ، وقيل إنه قتل فى غزورة أغار فيها وذلك فى صدر عصر الأمويين فى عام (704 م) .

وما أحدٌ حيٌّ وان كان سالما
بأخلد مما غيّبته المقابر
ومن كانْ ممّا يُحدثُ الدهرُ جازعاً
فلا بدَّ يوما أن يُرى وهوَ صابر
وليس لذى عيشٍ عن الموت مذهبٌ
وليس على الأيام والدهر غابر
... وكل شباب او جديد الى بلى
وكل امرىء يوما الى الله صائر
وكل قرينىْ الفة لتفرّقٍ
شتاتا وان ضنّا وطال التعاشر

والبحترى وابو تمام طائيان من قبيلة (طىء) التى انجبت مثل غيرها من القبائل العربية الكثير من الفرسان والشعراء الذين يقف فى مقدمتهم (أكرم العرب) فى جاهليتهم (حاتم بن عبد الله الطائى) وان طغى كرمه وغطت اخباره على شاعريته ، وقد اختار له البحترى ابياتا متفرقة فى سبعة ابواب من (حماسته) منها هذا البيت المفرد :

يسعى الفتى وحمام الموت يدركه
وكل يوم يدنى للفتى أجلا

وقوله :

ولا أشتــرى مالاً بغــدر علمته
ألا كل مال خالـط الغـدر أنكدا

والبحتـرى وابـو تمـام ـ كلاهما ـ له قصيدة مشهـورة ، لا يُذكران الا وذكرتـا معهما او قبلهما ، او حتـى قبـل ان يذكر اسماهما ، فالبحترى له (سينيته) فى وصف (ايوان كسرى)

صنــت نفسى عما يدنس نفسى
وترفعــت عن جدا كل جبس

ولأبى تمام (بائيته) فى (فتح عمورية والمعتصم بالله) :

السيف أصــدق انبـاءً من الكتبِ
فى حدّه الحـدُّ بـين الجـدِّ واللعبِ

وكلاهما اتســم بالوفـاء ، وهـى فضيلـة نادرة ، وكما كان البحترى وفيّا لأبى تمام استاذه الروحى ، فقد كان ابو تمام ـ من ناحية اخرى ـ وفيا لذكرى (على بن الجهم) صديق الخليفـة المتوكل والشاعر المبدع صاحب :

عيون المها بـين الرصافـة والجسر
جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

التى اشتهرت عليه اكثر مما اشتهر بها ، خاصة اذا عرفنا ما بين الشعراء من حساسيات مفرطة .

وفى (حماسة) البحترى من الشعر ما يتناول مختلف الاغراض لمئات الشعراء الجاهليين والاسلاميين من امويين وعباسيين ممن سبقوه ، وأمّا معاصروه او القريبون من عصره فلم يذكر لهم شيئا بمن فيهم ابو تمام الذى كانت (حماسته) دافعه الاول الى تجميع (حماسته) التى نحن بصددها [1] .

● والبحترى الى جانب شاعريته المتدفقة رقة وعذوبة فى مثل قوله :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا
من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبّه النيروز فى غسق الدجى
أوائل ورد كنّ بالامس نوّما [2]

---

(1) نصوص (الحماسة) المذكورة منقولة عن طبعة (لويس شيخو) اليسوعى التى حققها ونقلها عن النسخة الوحيدة المحفوظة فى مكتبة (ليدن) فى هولندا . الطبعة الثانية ، نشر دار الكتاب العربى - بيروت - لبنان -1967 م .

(2) ويقال النوروز ايضا ، وهو عيد للربيع ، فارسى قديم ، يوافق اول مارس / آذار .

يفتقهـا برد النـدى فكأنه
ينـثُّ حديثـا كان قبـل مكتما

ومـن شجـر ردّ الـربيع لباسه
عليه ، كما نشرّت وشيا منمنما

يطالعنا ناقدا ذواقة « بالمنتخبات » التى ارتضى لها ان تكون ضمن مختارات « حماسته » وهو ـ لا شك ـ قد بذل جهدا كبيرا فى انتقائها وتسجيل الافضل منها .

وبالرغم من اقتصاره على اختيار سبعة عشر بيتا فقط لخمسة شعراء فى باب (مؤاخاة الكرام) الا ان ذلك الاختيار ينمّ عن حس مرهف ، وبحسبنا هذا البيت الوحيد الذى اورده فى هذا المعنى لكعب بن مالك الغنوى :

فصاحب كرام النـاس وانـمُ الى العُلى
ودعْ من غوَى لا يجْـريَنْ لك طائرُه

او هذا البيت لعبد الله بن معاوية بن جعفر بن ابى طالب .

واذا صاحبـت فاصحـب ماجدا
ذا عفـافٍ وحياءٍ وكرمْ

او قول عبد الله بن مخارق الشيباني :

ولا تصـــل السـفيه ولا تجبه
فـــان وصالـــه داءٌ عياءُ

او قوله :

فان العقـــل ليس له اذا ما
تفاضلـــت الفضائـــل من كفاءِ

● ولعلنا نستطيع اعتبار البحترى وحيدامتفرداً بين اصحاب المختارات او حتى بين النقاد والباحثين والدارسين بتفطنه المبكر الى ما نسميه فى علم النفس الحديث (بالفوبيا PHOBIA) او (الرّهـــاب) او الخـــوف المرضى او الخـــوف الوهمـــى او (الوسوسة) وهى حديث النفس الى النفس بما ليس حقيقة ، وهى التى تشابه هنا المقصود فى قوله تعالى فى سورة الأعـراف (فوسوس لهما الشيطان) اى هيأ لهما ، او قوله فى سورة الناس (من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس) اى الشيطان الذى يهيىء لهم ويوعز اليهم .

وقد سجل البحترى ابياتا تتناول هذا الخوف او الشك تحت باب (فيما قيل فى المخافة والارتياع) وهو خوف او شكٌّ مروع ـ

كما نعرف ـ اذا اصاب انسانا احال حياته الى شر مستطير وعذاب لا يطاق ، فالمصاب به اذا شاهد ـ مثلا ـ اثنين يتهامسان ظنّ همسهما يعنيه ، واذا وجد شخصين يتحدثان فى خلوة بصوت خفيض شك فى ان حديثهما انما يخصه ، واذا دخل على جماعة وقطعوا ما كانوا مسترسلين فيه من كلام ليتفرغوا له خُيِّل إليه انهم كانوا يدبرون لالحاق ضرر به ، واذا صادف ان سار احد الناس خلفه فى الطريق تملكه فزع من الشك فى كونه يتتبعه لمكروه يريده له .

ان البحترى لم يبين لنا ـ كمنهجه فى حماسته ـ اسباب اختياره لتلك الابيات وهى سبعة وعشرون لثمانية شعراء منهم (النابغة الذبيانى) الذى يقول على لسان خائف واهم :

فإنك كالليل الذى هو مدركى
وان خلت ان المنتأى عنك واسع

او يقول :

وقد خفت حتى ما تزيد مخافتى
على وعلٍ فى ذى المُلاءة عامل

ولا ندرى ـ مرة اخرى ـ هل كان اختيار البحترى لها عن

وعى « تحليلى » وادراك لحقيقة ما تنطق به وتعنيه فى وضوح ، ومن منظور يشابه ما هو موجود فى علم النفس الحديث ، مثل هذين البيتين لمجهول أشار اليه بالآخر :

لقد خفت حتى كل نجوى سمعتها
اری أنّنی من ذكرها بسبيل
وحتى لويت السرَّ من كل صاحب
واخفيته من دون كل خليل

ومثل قول عبيد بن أيوب :

لقد خفت حتى لو تمر حمامة
لقلت عدوٌّ او طليعة معشر
وخفت خليلى ذا الصفاء ورابنى
وقالوا فلان او فلانة فاحذر
فمن قال خيراً قلت هذا خديعة
ومن قال شرّاً قلت نصح فشمّر

ومثل هذا البيت الذى لم يتثبت من كونه لجرير او البعَيث « خداش بن بشر » :

ولو انها عصفورة لحسبتها
مسوّمة تدعو عبيدا وازنما

ومثل قول « مضرِّس بن ربعى الاسدى » :

يحـاذر حتـــى يحســـب النـــاس كلهم
من الخـوف لا تخفـى عليهـم سرائره

ومثل قول « عبيد بن ايوب » ايضا :

لقد خفت حتـى خلـت ان ليس ناظرٌ
الى أحـــد غـــيرى فكدت أطير
وليس فمٌ الا بسرّى محدّثٌ
وليس يدٌ الا الىَّ تشير

● انها نماذج من الشعر النفسى ، مضى عليها وقت طويل جدا يمتد الى حقب ابعد من عشرة قرون ، وسواءً أجاءت فى (حماسة البحترى) عن دراية بها وبما ترمـى اليه ، أم وردت لاعجابه بها فقط دون سبر لغورها ومدلولها النفسى ، فانها تمْثل امامنـا دليلا على ان النفس الانسـانية واحـدة مهما اختلفـت الازمان وتوالت العصور .

شَاعِر الوَطَن ... وَالهِجْرة ... وَالمَنفى !

ولى وطــن آليت ألاّ أبيعه
وألاّ أرى غــيرى له ـ الدهــر ـ مالكا
وحبــب أوطــان الشبــاب إليهمو
ملاعــب قضاهــا الشبــاب هنالكا

بيتان للشاعر (ابـن الرومـى) مشهـوران ، يسـتعملهما الناس كالمثل السائر فى التدليل على حب الاوطان حبا يتملك القلوب والنفوس فلا يغنيها عما سواها شيئا .

ولقد قرر (ابن الرومى) (الا يبيع وطنـه والا يرتضى ان يرى غـيره له ـ ما عاش ـ مالـكا ـ) وهـذا قرار ـ دون شك ـ « مــادى » قد يكون فيه طلــب للشراء ورفضٌ للبيع ، أو محاولة للقيام بهذه العملية « المادية » وامتنــاع عنهـا لسبــب او أسباب قد يكون من بينها ان السعر المعروض غير مناســب ،

والوطن ليس سلعة توضع للبيع فتشترى ، وليس بضاعة يتقدم لها المشترون وتدور حولها مناقشات ومساومات فيمتنع مالكوها عن بيعها لأن المتقدمين ساموها ابخس الاثمان .

الوطن ، مرة اخرى ، حياة ، بفقدانها يكون العدم ، وبالتخلى عنها ـ مهما كانت الظروف ـ يكون الفناء والقضاء المبرم .

ان العدم والفناء ضدان للحياة ، وفقدان الوطن ضد له بصفة مطلقة كلية غير قابلة للتجزئة ، فإمّا ان يكون وطن ، واما ان يكون عدم وفناء او تضحية او استماتة من اجل الحفاظ عليه او استرداده بسبب الابعاد عنه ،

● ومن هنا فقد اهتزت الموازين عند (ابن الرومى) ـ رغم النية الحسنة لديه ـ حين اخضع الوطن للبيع والتملك وحين جعله « مادة » ، سلعة ، بضاعة قابلة للتنقل والمناقلة بين الايدى والتداول لدى (غيره) الذين عناهم بألاّ (يراهم مالكين لوطنه) والذين لا يمتون بأدنى اسباب الصلات اليه كما يفترض او يتوقع بداهة .

ولكن الوطن فى تقييمه او قيمته عند شاعر الوطن (أحمد

رفيق المهدوى) ـ مثلا ـ يختلف اختلافا كاملا عن النظرة التى بها نظر اليه (ابن الرومى) وعن النظرات الاخـرى التـى قد ينظره بها اى شاعر آخر .

(رفيق) يرى الوطـن ـ وهـو الـذى يلقـب عندنـا بشاعـر الوطن ـ شيئاً فوق كل الاشياء ، ولذلك فقد ودعه حين ارغم على مغادرته فى حقبة من حقب التاريخ المحزنة الـدامية التـى كابدتها ليبيا بزجل بليغ فيه لوعة العذاب وصدق العاطفـة ، اشتهر عليه مطلعه اكثر من بقيته حين يطلقه (رفيق) فى حزن وأسى :

تبقَّى على خير يا وطنًا بالسلامة
ورانا ندامى
يا عون من فيك كمّل أيامه

● والجانب الزجلى « المهمل » فى شاعرية رفيق الفذة يحتاج الى من يدرسه ويستقصيه بحثا وتنقيبا ، فقد غطى شعره ذلك الزجل ، ولربما تتجه اصابع الاتهام اليه ـ هو نفسه ـ باهمالـه لسبب من الاسباب التى سيكون من واجب المتتبع ان يجليهـا ويكشف عنها فى يوم من الايام .

● الجانب الزجلى عند (رفيق) ـ ليس موضوعنا هنا ـ ولكنَّ ما يعنينا هو الوطن الذى (ودعه متمنيا له الخير والسلامة وأبدى أسفه الباكى على مفارقته دون ان يقدر على ان يقضى بين مغانيه بقية عمره) .

* لقد ولد (رفيق) فى وطن هو ليبيا ، وهذا الوطن ليس كلمة جافة او قالبا مجردا جامدا ، ولكنه يحمل عنده الكثير من المعانى التى يصطخب بها قاموسه « العاطفى اللغوى » الخاص ، انه يجعل له مدلولا واسعا شاملا ويولد منه انغاما ذات ايقاعات مقدسة الوقع جليلة عند السمع عظيمة الاثر تختال عبر مقطعاته وقصائده التى حفلت بها حياته منذ ان تفجرت موهبته الشعرية وحتى رحيله الابدى على اعتاب عامه الثالث والستين الذى شاء له ان ينتهى به غريبا فى بلاد عنه غريبة فيقضى بها (غريب الوجه واليد واللسان) (1)

* وعاد (رفيق) الى وطنه شابا تفتحت مواهبه واتسعت مداركه وعرك الحياة موظفا طموحا لم يشأ ان يقف موقفا سلبيا

---

(1) ولد (أحمد رفيق المهدوى فى عام1898 م ، وتوفى فى اليونان فى عام1961 م عن ثلاثة وستين عاما ، واحضر جثمانه من هناك ودفن فى ارض الوطن .

من قضية وطنه او بعيدا عن تلاطم الاحداث العظام التى يصنعها المجاهدون المخلصون المتصدون للغزوة الايطالية الهمجية الشرسة ، مما اضطره الى الذهاب الى تركيا فى السادسة والعشرين مهاجرا هجرته الثانية بعد ان ضيق عليه الايطاليون الخناق فطردوه من وظيفته ـ وهى مصدر معاشه الوحيد ـ فى عام 1924 م .

* وراوحت حياة (رفيق) بين هجرة من الوطن وعودة اليه ، واذ عاد من تركيا موليا عنها (لأن الغريب ، كما يقول هو نفسه ، مهان حيثما كان) فانه لم يلبث فى عام 1936 م ان غادر الوطن ميمّما وجهه شطرها مرة ثانية منفيا من قبل الايطاليين الذين ضاقوا به شاعرا جماهيريا يتصدى لهم مع غيره من قلة المثقفين بعد ان استفحل تنكيلهم بالشعب فاعملوا فيه نفيا خارج الوطن مهاجرا لاجئا وداخله مشردا وهائما فى الصحراء او مستهدفا للابادة الجماعية فى معسكرات التجميع ومعتقلات القتل والتجويع .

* فماذا قال (رفيق) فى هذا الجانب من حياته الذى يعكس حياة شعبه بأكمله ومأساته بكل وطأتها الثقيلة ؟؟

* انه كمواطن يحب وطنه حبا ملأ كل وجوده وتملك كل مشاعره يرى فى فراقه انواعا شتى من الآلام يعبر عنها فى اكثر من موضع من شعره ، وكأنه لم يخلق الا ليعيش فيه ، فاذا ما ابتعد او ابعد عنه أحس بالضيق المضنى وشعر انه يتنفس هواءً خاليا من اى عنصر يساعد على الحياة بل هو يكاد يختنق أو يشفى على الاختناق ، وها هو يقول :

رحيلى عنك عزَّ علىَّ جدا
وداعا ايها الوطن المفدى
وداع مفارق بالرغم شاءت
له الاقدار نيل العيش كَدًّا
... سأرحل عنك يا وطنى وانى
لأعلم اننى قد جئت ادًّا
... طلبت العز فى وطنى مقيما
فأوسعنى زمان السوء رَدًّا
... ويا وطنى هجرتك لا لبغض
ولا أنى منحت سواك ودا
فلا والله ما هاجرت حتى
جهدت ولم اجد من ذاك بدا

. . . ويا وطنى نبا بى عنك حب
واحيانا يكون الحب صدا
وقد يأتى الغيور بما يراه
خلى من جوى للعقل ضدا

● ويغمر وجدانه التشاؤم حتى يظن انه منصرف عن وطنه الى غير رجعة اليه ، وقد بدا الجو ملبدا بغيوم التسلط الاستعمارى التى ينشرها الغزاة فى كل مكان ، فلا يملك الا أنْ يهتف للوطن وقد اخذ اليأس من روحه كل مأخذ :

ويا وطنى وداعا من محب
تحيّر رأيه اخذا وردا
وداعا لا أظن له لقاء !
فوا أسفا اذا ما البين جدا
اناديه وقد زمت ركابى
وهد البين ركن الصبر هدا
وجاشت تخنق العبرات صوتى
وداعا ايها الوطن المفدى

* ويقول فى موضع آخر :

سكنتـــه يوم الــرحيل فهاجا
شـــوق اثـــار المدمـــع الثجاجا
حاولـــت اظهـــار التجلـــد فانثنى
عزمـــى وراح تجلـــدى ادراجا
عالجـــت من الـــم الفـــراق وهوله
مـــا لا يفيد الصبـــر فيه علاجا

● وترتفع عنده نغمة التشاؤم واليأس من لقاء الوطن ، ذلك الحبيب الذى ارغم على هجرانه وخاف الا يستطيع العودة اليه ثانية :

ان الفـــراق بلا لقـــاء يرتجى
مـــوت يكرره الحنـــين هياجا
. . . يا من يعـــز فراقهـــم والله لو
خـــيرت ما اختـــرت النـــوى منهاجا

● ولكنه يتأسى بقصة ابى البشر آدم واخراجه من الجنة من بعد ارتكابه للخطيئة الأولـى ، انه ومن طرف خفى ، يشبـه وطنه بتلك الجنة التى أُخرج منها آدم وحواء وأُهبطا الى دركات الدنيا السفلية فيقول :

لكنــه قدرٌ قضى من قبلنا
لأبــى البــرية آدم الاخراجا
وقضى علىَّ به وزاد فراقكم
ليكون وقــع مصائبــى ازواجا

وفى بلاد الاغتراب والهجرة لا ينى (رفيق) عن ذكر الوطن وتذكر مغانيه الزاهرة ، حين كان له الدهر مبتسما وعليه مقبلا ، ويرى ان الحياة تفقـد كل بهجتهـا وان الــذل يخيم على المرء ويجلب اليه الهوان متى كان غريبا مضاعا فى بلاد الغرباء :

ما خيم الليل الا بات يقلقنا
شــوق اذا رقــد السهار ناجانا
نحــنٌّ شوقــا الى اوطاننــا فاذا
تبســم البــارق الغربــى ابكانا
ومــن سوانــا جدير بالبــكاء على
ذكرى (الفويهـات والبــركا وجليانا)
معاهــد حبهــا لو لم يكن شغفا
بمــا لهــا من جمــال ، كان ايمانا
قد طوحتنــا الليالى عن مواطننا
يا ويح كل غريب قدره هانا

لا عزّ الا لثاو فى مواطنه
ان الغريب مهان اينما كانا

وما ان تحل نهاية الحرب العالمية الثانية ، وتحمل معها الهزيمة لايطاليا الفاشية مع ضلعى تحالفها فى مثلث المحور ، حتى يهب لها رفيق شامتا بها ، وهى التى غزت وطنه وقتلت وشردت شعبه وتسببت فى نفيه ، فيهتف من صميم قلبه فى عام1945 م مرسلا قصيدة طويلة من تركيا يفتتحها ببيت مضمن يضع فيه كلمة (انتلف) الدارجة بدلا من كلمة (ذهب) فى البيت المشهور :

لقد ذهب الحمار بأم عمرو
فلا رجعت ولا رجع الحمار

فيأتى وقعها اكثر تعبيرا عن دخيلة نفسه وعما يجيش فى قلوب الناس ويكون بيت المطلع عنده :

قد انتلف الحمار بأم عمرو
فلا رجعت ولا رجع الحمار

ويكمل المعنى الذى يجول فى خاطره حول المصير الذى آلت اليه ايطاليا ، او الذى يؤمل ان تؤول اليه :

الى بئس المقر وحيث القت
برحل حول ساحته الدمار
مضت مصحوبة بدعاء شرّ
يكرره شمات واحتقار
... هجرت لاجلها وطنى وأودَى
بشرخ العمر شيب واحتقار

ويذكر ايطاليا بالثأر ، نعم بالثأر منها ، او ليست هى التى صبت حقدها على بنى وطنه ، وحولت بلاده الى خراب ودمار وشقاء ، اليست هى التى قتلت (المختار) الشهيد ؟؟ :

سنذكر ما حيينا منك ثأرا
له فى طيٍّ اضلعنا أوار
سنذكر حادث البطل المفدى
(أبى المختار) ما طلع النهار
ونأخذ ثأره حتما ، فعار
نعيش ، وشيخنا دمه جبار
شهيد الحق مبدؤه جهاد
بايمان ، وذاك لنا شعار

وما يكاد يعود الى الوطن فى عام1946 م حتى ينطلق على

سجيته هاتفا جذلان بالعودة وبالمستقبل الذى يرجيه لشعبه الذى ضحى بكل شىء فى سبيل حريته :

رجع المطوّح من بعاده
عاد الغريب الى بلاده
الحب يفعم روحه
والشوق يلهب فى فؤاده
وبشائر المستقبل الـ
ـزاهى تضاعف من جهاده
ليرى حياة حرة
هى وحدها أقصى مراده
كانت مناه وكان من
جرائها سبب اضطهاده

واذا كان (محمد مهدى الجواهرى) الشاعر المبدع قد خاطب شعبه فى العراق فى عام 1951 م بقصيدة طويلة يتأسى فيها على نومه المنكود واستكانته لناهبى خيراته ومسببى جوعه وتأخره وترديه فى مهاوى الفقر والحاجة دون ان يحرك ساكنا بقوله ساخرا فى مرارة :

نامـــى جياع الشعـــب نامى

حرستـــك آلهـــة الطعام

نامـــى فان لم تشبعى

مـــن يقظـــة فمـــن المنام

نامـــى على زبـــد الوعو

د يداف فى عســـل الكلام

نامـــى تـــزرك عرائس الا

حـــلام فى جنـــح الظلام

تتنـــورى قرص الرغيـ

ـف كدورة البـــدر التمام

وتـــرى زرائبـــك الفسا

ح مبلطـــات بالرخام

واذا كان « ابو القاسم الشابى » شاعر تونس الكبير قد خاطب ـ هو الآخر ـ شعبه قبل رفيق والجواهرى بوقت طويل ، من بعد ان بلغ يأسه اقصى مدى منه ، وأحد درجاته غضبا ، حتى تمنى ان يجتث كل اسباب وجوده فقال ثائرا على رضوخ شعبه لأمره الواقع :

ايهـــا الشعـــب ليتنـــى كنـــت حطا

بـــا فأهـــوى على الجـــذوع بفأسى

ليتنـــى كنـــت كالسيول اذا سا
لــت تهـد القبـور رمسـا برمس
ليتنـــى كنـــت كالـرياح فأطوى
كل ما يخنـق الزهـور بنحس
ليتنـــى كنـــت كالشتــاء أغشى
كل ما أذبـل الخـريف بقرسى
ليت لى قوة العــواصف يا شعـ
ـبـى فألقـى اليك ثورة نفسى
ليت لى قوة الاعاصـير ان ضجت
فأدعــوك للحياة بنبسى
ليت لى قوة الاعاصـير، لكن
أنــت حى يقضى الحياة برمس

اذا كان (الشابــى والجواهــرى) كذلك فان (رفيقا المهدوى) أيضاً يدرك مثلهما بحسـه المتيقـظ، شأن ثلاثتهم جميعـا ، شأن السابقـين للاحـداث ووقائعهـا وملابساتهـا ، المتوقعين لما ستجره من ويلات على شعوبهم ، يخاطب (رفيق) شعبه وقد رأى ما يعـانيه من دعـة وتشتـت وانخـداع ببـريق المؤامـرات التـى تحـاك ضده فيقـول فى قصيدة طويلـة فى

عام 1948 م :

الفــوا الــكرى واستعذبــوا الاحلاما
(حــرِّك) لعلك توقــظ النواما
يا ويح هذا الشعــب طال رقاده
فمتــى يهــب من الرقــاد قياما
ومتــى (يفتــح عينــه) متنبها
لخزعبــلات الفاســدين ذماما

ثم يحذره من العملاء الذين باعوا واعطوا العدو كل شيء : النفــوس والضمائـر ، وباتــوا على وشــك أن يبيعــوه الأرض والشعب ايضاً فيقول :

لا يخلص المأجــور فى اعماله
الا لبــاذل مالــه استخداما
واذا الضمائــر اصبحــت مأجورة
فاقــرأ على حر الضمــير سلاما

فهـــرسُ

ثمن بيع النسخة للمؤسسات الرسمية 600 درهم

صدر من سلسلة كتاب الشعب
لسنة1391 من وفاة الرسول1982 م

1 ـ الغربان وجوقة الجياع ـ حالة حصار بلا مناسبة (مسرحيتان) البوصيرى عبد الله
2 ـ المسرح الذى نريده — محسن الخياط
3 ـ اسرار القواعد البريطانية فى ليبيا — علي شعيب
4 ـ رموز الهزيمة فى الثقافة العربية — فوزى الطاهر البشتى
5 ـ صور من جهاد الليبيين بفلسطين سنة 48-49 — السنوسى شلوف
6 ـ الأرهاب الأمبريالى — محمد المصرى
7 ـ فصائل الدم بين الطب والقضاء — ممدوح يوسف الجاسم
8 ـ عرب البرازيل — عبد اللطيف بوكر
9 ـ اواكس طرواده — فارس قويدر
10 ـ تطور التعليم العالمى فى كل الحضارة الاسلامية — د. عمر التومى الشيبانـي
11 ـ الكيمياء والدواء — محمد فهمى زعتر
12 ـ عبقرية العرب فى لغتهم الجميلة — د. محمد التونجى



الثمن :
300 درهم